أطفال لكنهم أبطال

عبد الكريم عكاش

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوع الكتاب	قصص تربوية هادفة
عنوان الكتاب	أطفال لكنهم أبطال
تأليف	د. عبد الكريم عكاش
التنضيد	مركز هارون الرشيد للنشر الورقي والرقمي/دمشق
قياس الكتاب	١٤× ٢٠ سم
عدد الصفحات	١٧٠

الطبعة الأولى
١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من دار غار حراء

دار غار حراء

سوريا - دمشق - الحلبوني - ص . ب : ٢٥٥٠٧
هاتف : ٠٠٩٦٣١١٢٢١٨٥٣٠ - ٠٠٩٦٣١١٢٢١٩٠٣٧
فاكس : ٠٠٩٦٣١١٢٢٣٧٦٠٦ جوال : ٠٠٩٦٣٩٩٢٩٦٧١٠٢
www.gharhira.com - gharhira@gmail.com

ISBN 978-9933-12-283-6

إهـــــــــداء

إلى من ألمحهم . . . وهم قادمون

من خلف جدار الزمن . . يطلعون ! . .

من وراء الشمس . . ينطلقون ! ! . .

من ضمير الغيب . . ينبثقون ! ! ! . .

فتيةً . . . إلى الإسلام ينتسبون . . .

عبد الكريم عكاش

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

ليست هذه القصص لمجرد المتعة والمعرفة، وليست كذلك من قبيل العزاء النفسي.. ولا هي مجرد عرض لحقائق التاريخ.. ليست كذلك أبداً !..

إنما هي إضمامات مضيئة في ليالي ركبنا العاثر.. نتطلع إليها بحب وشغف، وكلنا أمل بأن التاريخ سيعيد نفسه مرة أخرى .. هذا التاريخ المشرق البديع، نرنو إليه بأعيننا وقلوبنا وأرواحنا.. فتاريخنا صفحة وضيئة في سفر الحياة الخالد.

وتقفز هذه الباقة العاجية اليوم لتعيش بيننا ولتكون نبراساً لنا ولأطفالنا.. لفتياننا وفتياتنا.. فما أحرانا أن نمتح [1] من معين الماضي.. ماضي أمتنا العريق، يوم أن كنا أمامه الدنيا ومهوى

---

(1) متح بالدلو : جذب رشاءها ، ومتح الماء : نزعه واستخرجه . المعجم الوسيط ، مادة: متح .

أفئدتها في الحضارات البشرية، والمعارف الكونية، والعلوم الإنسانية. في ذلك الماضي البعيد كنا أغنياء في كل شيء.. في العلوم.. في الدين.. في الحياة.. كنا أغنياء في عالم الشعور.

وإذا كنا – اليوم – قد فصمنا عن هذا التاريخ – لسبب أو لآخر – فنحن الآن أحوج ما نكون إلى تلك الوحدة الكبرى، وإلى ذلك التلاحم الجامع الذي لا اتفصم عراه المتينة الصلبة.

نحن بحاجة اليوم إلى قراءة التاريخ قراءة جديدة.. لا للترفيه ولا للمعرفة.. وليس كذلك للعزاء النفسي وإرضاء للنهم الروحي.. إنما هي قراءة جادة منشئة فاعلة، تثمر في العقل والقلب.. ناراً ونوراً..

ناراً تلهب العقل نحو إبداع جديد في التفكير، والتطلع إلى واقع الحياة اليوم، وإلى موقعنا من هذه الحياة وبين تلك الكتل البشرية الهائلة في الكم والنوع.

ونوراً يشعُّ ضياؤه في القلب والضمير، فنغدو معه أرحب روحاً، وأعلى منزلةً، ننظر من علٍ إلى هؤلاء الناس الغارقين في الوحل والطين، ولا نحاول أن نخوض معهم في المشرع الآسن، ما دمنا واثقين مما نحن فيه، بل نحاول أن نرقى بهم حتى يسعدوا معنا في عالمنا الرحب الطليق. إننا نقف اليوم على مفترق طرق.. فإما أن يكون طريق الرقي والوئام، أو طريق الهاوية والفناء.. نحن بحاجة إلى صحوة لا سبات بعدها، فعجلة التاريخ لا تنتظر الأموات.. ووقائع الأيام لا تلتفت إلى الوراء، إلا بمقدار ما يتصل بالحاضر والمستقبل !.

إن أي أمة لها ماضٍ وتاريخ.. لا يمكن أن تستوعب تلك الأحداث والبطولات التي زخر بها تاريخنا في يوم من الأيام !.

ولعل في هذه القصص التي بين أيدينا ما يكون حجة لأمم الدنيا قاطبة.. ولا يعنينا أولئك الذين يصمون هذا التاريخ بالزيف أو المبالغة أو الافتراء !..

فنحن قانعون بما لدينا، ما دمنا نؤمن بمقدارتنا وبإسلامنا الذي يصنع المعجزات !!.

المؤلف

دمشق في 9 / صفر / 1414هـ

الموافق 18 / 7 / 1993م

عبد الكريم عكاش

1. اليتيم العظيم

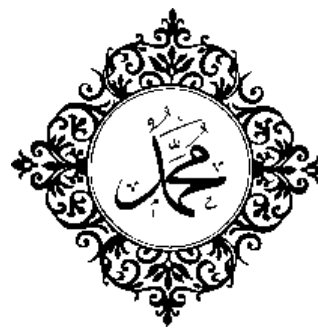

اعتذار :

عفواً رسول الله..

فما مثلي يكتب عن مثلك.. ولكنك – يا سيدي – كنت لنا القدوة في هذه الحياة.. حتى في طفولتك العامرة الممرعة، وفي صباك الفاتن المعمود.

كلماتي فيك – يا مهبط وحي الإله – استحالت ذهبيةً قشيبة، تضوَّع منها المسك والعنبر والروْح والريحان.

حياتكم – يا رسول الله – رحلة ممتدة في الأقيانوس [1] البعيد..

---

(1) الأقيانوس: كلمة يونانية وتعني **البحر المحيط**.

تروي للإنسان قصة الحياة الطويلة.. من مبتداها إلى منتهاها.. قصةً لا تطالها يد العابثين.. لأنها قصة الكفاح والمشي على الجراح، ولأنها قصة الهداية !.

ولقد صدق كل أولئك الذين أنعم الله عليهم برؤياك المقدس، فتفرَّسوا السيادة والمجد في محيَّاك الوضيء.

عفواً رسول الله..

ولكن لا ضير من أن نصف النجم في سراه.. وإن لم نستقر في ذراه.. وما شهدنا إلا بما علمنا.. وإن قصَّر القلم بنا عمَّا أردنا !!..

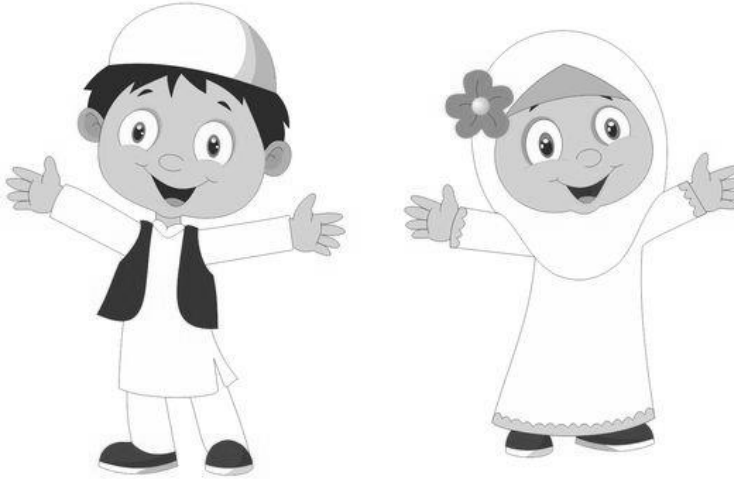

اليتيم العظيم

مكة.. هذا البلد الآمن يرنو إلى الذرا، متعلقاً بأستار السماء، يطاول نجومها الماسية المزدانة بضياء الملائك وألق النور المسافر في الأبدية.

في رحاب مكة تسكن كعبة الله المقدسة لتصل عالم السماء بعالم الأرض.. هذه الكعبة التي بناها نبيُّ الله إبراهيم، لتكون مقصد الناس ومهوى أفئدتهم يأتونها من كل فجٍ عميق.

الكعبة !.. وحدها اللفظة والمعنى.. وهل اللغة في أبهى معانيها تستطيع أن تعبِّر عن مدلولها ؟... حسبها أنها نَشْوَى تُذَاق ولا تُوْصَف !..

وفي ذات يوم من أيام الإنسان في العالم المذخور، كانت مكة تشهد أمراً غير عادي.. كانت مكة وأهلها يشعرون بذلك، بل

ويدركونه تماماً.. لم يعلموا ما هو وما هو حقيقته.. ولكنهم أحسُّوا بشيء غريب.. شيءٍ سيغير مجرى حياتهم.

كانت مكة والعرب جميعاً، بل والإنسان في كل مكان.. ينتظرون هذا اليوم.. ولماذا هذا اليوم بالذات ؟.. تلك قصة غريبة.. لأنها قصة إنسان في رحلته الطويلة !.

كانت العرب تعيش محنة الجاهلية، وتبحر في عالم الخرافات اللامتناهية.. ضبابية في الرؤية.. وسوداوية في الحياة القبلية....

ضآلة في العلم.. تَخَبُّطٌ في عالم الأسر.. قتامة في عالم النفس والضمير..

كان العربي بسذاجته يصرخ، وما جدوى صراخه ما دام الناس نياماً مستغرقين في حلمهم الأسود ؟ وفي زاوية أخرى من الأرض، كانت تعيش قوة مادية هائلة، لكنها هزيلة في عالم الروح ما دامت قد اتخذت من الإنسان إلهاً يُعبد من دون الله، قد

داعبها الاضطراب الفكري والروحي، فانقسم المجتمع إلى طبقات.. منها المُعْدَم والجائع والفقير.. وفي جهة أخرى كانت فئة تغرق في الغنى والنعيم.

بدا العالم كله يبحث عن المُنْقِذ.. عن صوت الإله في الأرض..

وهل غير مكة أجدر بأن تكون رجع هذا الصدى العلوي.. أو صوت السماء الحنون يداعب شفافية الفطرة الإنسانية.

وكان اختيار السماء لمكة.. ثم لقريش.. ثم لبني هاشم.. ثم لعبد المطلب.. ثم لعبد الله.. ثم لمحمد ﷺ.

في هذا اليوم الأغرِّ من حياة الإنسان، كان عبد المطلب يطوف حول الكعبة، يناجي خالقها الذي ما شك بوجوده يوماً. فيرى جلالها الباهر يغمر فؤاده من التحنان والرضى، فإذا بالدموع السواجي تكتب على صفحة وجهه أسمى آيات الخشوع.. عبد المطلب.. هذا السيد الجليل سيد مكة الأوحد قد

شرب من كأس الرضى الريان، وقنع بما حباه الله به من كرم وحلم وخلق وأناة ورفعة وسيادة وقليل من الفقر.. وهل الفقر إلا سمة من سمات العظماء ؟!.. ومتى كانت الجِدَةُ والبطر تصنع الرجال ؟.. إن الفقر وحده يؤجج الألم.. ذلك الألم الوجيع الكثيف، وشدة الوجع المأزوم هي أول الطريق.. طريق العظمة والخلود ! !..

عاش عبد المطلب سيد قريش وزعيمها والأمل الرحيب ملء فؤاده الغض الرطيب، يطوف في كل يوم حول كعبة الله مقصد النور، وفي هذا اليوم كان يطوف كعادته رافعاً يديه إلى السماء يستمطر الرحمة من ربِّ الكعبة، وأن يكون الوليد ذكراً يعوِّضه فقده لأحب أبنائه إلى نفسه " عبد الله "، هذا الذي استجاب لنداء ربه وهو بعد شاب في مقتبل العمر، غض الغصن، وسيم الطلعة... آخر العنقود !..

وفيما هو على حاله تلك من تبتل وعبادة، **إذا بامرأة تأتي إليه وتقول له**: أبشر يا عبد المطلب !!..

فقال: بخٍ بخٍ.. وما تلك البشرى في هذه الساعة المباركة ؟.

فقالت له المرأة: لقد وُلِد لك الليلة مولود عجيب.. فإذا بالخبر يزلزل أوصاله، فأضحى حائراً بين المسرة والخوف... أما إنه لخبر يسره...

ولكن ما شأن هذا المولود العجيب ؟

و أسرع عبد المطلب إلى بيت آمنة، والأرض تُطْوَى تحت قدميه طي السجل، وتتسارع الدروب أمامه، وأنفاسه المتهادجة تتقطع متلاحقة، حتى وصل البيت، فتلقته آمنة وقَابِلَتِهَا..

فقالتا له: يا أبا الحارث: وُلِدَ لك الليلة مولود عجيب.. فذُعِر عبد المطلب وقال: أليس بشراً سوياً ؟....

آمنة وقابلتها: بلى.. ولكن سقط حين خرج خَاْرًّاً كالرجل الساجد ثم رفع رأسه وأصبعيه نحو السماء حين لا تُقِلُّ [1] رقبةٌ رأساً، ولا ذراع كفاً، وخرج معه نور ملأ البيت، وجعلت النجوم تدنو حتى ظننا أنها تقع علينا.

وقالت آمنة: يا أبا الحارث: لّما اشتدَّ بي وجع المخاض، كَثُرَت عليَّ الأيدي في البيت، فحين خرج إلى الدينا، خرج معه نور رأيت فيه قصور بصرى من أرض الشام، وقد أُتيتُ قبل أن ألده في منامي فقيل لي: " إنك ستلدين سيد هذه الأمة، فإذا ولدتيه فسميه محمداً، فإن اسمه في التوراة أحمد، وإذا وقع على الأرض **فقولي** :

أُعيذهُ بالواحد... . من شرِّ كل حاسد

---

(1) تقل: تحمل.

فقال عبد المطلب (وقد علته ابتسامة عريضة): أخرجي إليَّ ابني، فلقد رأيتني الساعة أطوف بالبيت فلقد رأيته مال حتى قلت: سقط عليَّ... ثم استوى منتصباً، وسمعت من تلقائه قائلاً يقول: الآن طهرني ربي، وسقط هُبَل [1] على رأسه، فجعلت أمسح التراب عن عيني.. وأقول: أنا نائم ! ؟

فَأُخْرِج إليه النبي ﷺ، ونظر إليه وتأمله، فإذا هو النور.. قد بدا الجمال تاجاً معقوداً على هامته.. وليد صغير، مُشَرَّبٌ بحمرة، عيناه سوداوان واسعتان، ينظر بهما إلى السماء و فكأنما هو يتطلع إلى ما وراء نجومها.. فإذا ابتسم انهلَّ النسرين وأورق النيلوفر.

نظر إليه عبد المطلب، والدموع تملأ عينيه، فقبَّلة وانطلق به إلى الكعبة، فطاف به وظل على حالته تلك يطوف به كل يوم إلى أن أتمَّ أسبوعاً.

---

(1) هبل: صنم كبير، كانت تعبده قريش في الجاهلية.

فقام عند المُلْتَزَم وجعل يقول :

يـا ربَّ كـل طـائـف وهـاجـدٍ ... وربَّ كـل غـائـب وشـــاهـدِ

أدعوك بالليل الطفوح الراكدِ(1) ... لهمَّ[2] فاصرف عنه كيد الكائد

واحطم به كل عنود ضـــاهدِ(3) ... وأنشـــئه[4] يا مُخَلِّد الأوابدِ[5]

في سودٍ[6] رآس وجد[7] صاعد

---

(1) الطفوح الراكد : هو الممتلئ ، وأراد بلوغ الظلمة غاية الشدة والكمال . والراكد :الثابت الدائم .

(2) لهمَّ : أي اللهمَّ.

(3) عنود ضاهد : العنود من العناد ، هو التشبث بالأمر أو الشيء ، وضاهد هو الظالم المغتصب. ومنه قولهم : (فلان مضطهد) أصلها (مضتهد) فانقلبت التاء طاءً .

(4) أنشئه : أي أخره وأطل عمره .

(5) الأوابد : هي الوحوش ، والعرب تضرب المثل بها في البقاء . تقول (بقيت ما بقيت الأوابد).

(6) سودٍ : السيادة .

(7) الجد : الحظ أو الحظوة أو الرزق ، يصح فيها المعنى جميعاً ، يقال : (غَثَرَ جَدُّه أو تَعِسَ جَدَّه) أي خسر أو هلك.

وكانت آمنة تروي أشياء غريبة عن وليدها الصغير. فمما قالته في ذلك: إنها لَمَا ولدت محمداً نظرت إليه، فإذا به ساجد قد رفع أصبعيه كالمتضرِّع المبتهل، ثم رأت سحابةً بيضاء قد أقبلت من السماء تنزل حتى غشيته، فَغُيِّب عن وجهها، فسمعت منادياً يقول: طوفوا بمحمد مشرق الأرض وغربها، وأدخلوه البحار كلَّهَا ليعرفوه باسمه ونعته وصورته، ويعلموا أنه سُمِّيَ فيها الماحي، ولا يبقى شيء من الشرك إلا مُحِيَ به في زمنه، ثم تجلت عنه في أسرع وقتٍ، فإذا به مُدْرَجٌ في ثوب صوفٍ أبيضَ أشدَّ بياضاً من اللبن ، وتحته حريرة خضراء قد قَبَضَ على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الرطب الأبيض وإذا قائل يقول: قبض محمدٌ على مفاتيح النصر، ومفاتيح الريح، ومفاتيح النبوَّة [1].

(1) الخبر غريب جداً، كما قال ابن كثير في شمائل الرسول ص 577 . (روى الحديث عن سعيد ابن عمرو الأنصاري عن أبيه عن ابن عباس). الجامع في السيرة النبوية ـ سميرة الزايد : م / 1 ص 140 .

وهكذا ولد الطفل العظيم، ليكون منقذ الإنسانية، وليحمل في عقله وقلبه سعادة الإنسان، وفي رسالته الخالدة، سعادة الدار الآخرة.. وكانت أمة تحوطه فترى فيه عزاءً عن زوجها المعمود، الذي فقدته، ومحمد لا يزال بعد جنيناً في أحشائها. فَحنَّت عليه وضمته إلى صدرها ، وسكبت عليه من حبِّها، وقَبَّلته في رأسه وخديه وكل مكان بلغته شفتاها.

وتأتي المراضع من البادية إلى قريش، حيث الحاضرة الغنية، وتأخذ كل مرضعة وليداً، وكن يأبين أن يأخذن محمداً، ويقلن إنه يتيم، وما عند اليتيم من خير يطلبنه ليعينهنَّ على شَظَفِ عيشهن وفقرهن. وكان من بين المرضعات امرأة تُدعى حليمة، طرقت باب عبد المطلب :

فقال: من أنت ؟

فقالت: امرأة من بنى سعد !..

فقال: ما اسمك ؟..

قالت: حليمة

فتبسَم عبد المطلب وقال بخٍ بخ [1].. سعد وحلم خصلتان فيها خير الدهر وعِزُّ الأبد. يا حليمة إن عندي غلاماً يتيماً، وقد عرضته على نساء بني سعد فأبين أن يقبلن وقلن: ما عند اليتيم من الخير، إنما نلتمس الكرامة من الآباء.

فهل لك أن ترضعيه، فعسى أن تَسْعَدِي به !!!.

قالت: ألا تذرني حتى أشاور صاحبي (أي زوجها) ؟..

قال: بلى..

---

(1) بخٍ بخ :اسم فعل: معناه عَظُم الأمر وفخم ، يكون للرضى والإعجاب بالشيء أو الفخر والمدح . ويكرر للمبالغة فيقال بخٍ بخ بالكسر .

فانصرفت حليمة إلى زوجها وأخبرته، فكأن الله قذف في قلبه فرحاً وسروراً.

فقال: يا حليمة خذيه.

فرجعت حليمة إلى عبد المطلب فوجدته قاعداً ينتظرها !.

فقالت: هلمَّ الصبي !.

فاستهل وجهه فرحاً، فأخذها وأدخلها بيت آمنة

فقالت آمنة لحليمة: أهلاً وسهلاً.

وأدخلتها في البيت الذي فيه محمد ﷺ فإذا هو مُدْرَجٌ في ثوب صوف أبيض من اللبن، وتحته حريرة خضراء راقداً عليها على قفاه يغطُّ تفوح منه رائحة المسك، فأشفقت حليمة أن توقظه من نومه لحسنه وجماله، ووضعت يدها على صدره، فتبسم ضاحكاً، وفتح عينيه إليها فخرج منهما نور حتى دخل عنان السماء، وهي

تنظر، فَقَبَّلَتْهُ بين عينيه وحملَتْهُ، وما حملها على أخذه إلا أنها لم تجد غيره [1].

وعادت به حليمة إلى ديار بني سعد بن بكر، فأخصب الزرع ودَرَّ الضرع، وأنعم الله على حليمة وزوجها وعلى أولادهما بالخيرات والمسرات، فباتوا في حلل النعيم وسعة من العيش بعد ضنك وضيق شديدين.

وكانت حليمة تنظر إلى محمد في كل شأن من شؤونه، فترى أمراً عجباً، إنه طفل لا كالأطفال، يشبُّ شباباً لا يشبُّه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى أضحى غلاماً جَفْراً [2]. وكان الذكاء اللمَّاح يظهر في كل حركة من حركاته ، والعظمة تبدو في كل التفاتة من التفاتاته.

---

(1) نقلاً عن السيرة الدحلانية على هامش السيرة الحلبية : ج1/ 47.

(2) جفراً: الغليظ الشديد .

ورأته مرة الشيماء، أخته في الرضاعة، فأبصرت وميض السيادة يلوح في جبينه الوضاء، وأدركت أن لهذا الأخ شأناً في الحياة. **فقالت:**

يـا ربِّ أبقِ أخي محمـداً حتى أراه يافعاً وأمردا[1]

ثم أراه سـيِّـداً مُسـوَّداً واكْبِتْ أعاديه والحُسَّـدا

وأعطه عزماً يدوم أبدا

وكانت تدعو وتقول :

هـذا أخ لي لم تـلـده أمـي وليس من نسـل أبي وعمي

فـديتـه من مخول[2] مُعِمِّي فـأنـمـه الـلـهـمَّ فـيـما تـنـمي

---

(1) الأمرد: الشاب طرَّ شاربه ولم تنبت لحيته . يقال: "مُرد على جُرد" أي "شباب مرد على خيول جرد.

(2) مخول: أشبه أخواله .

ويكبر محمد.. وينمو كما الزهرات في أكمامها.. ويغدو كريحانة تضوَّع مسكها بين الناس.. فتأخذه حليمة ليعيش مع أمه، بعدما قضى سنوات عمره الأولى، رُبِّيَ خلالها على أخلاق العرب وشمائل الخير.. ورضع لُبان الفصاحة العربية في أحضان البادية، لتكون كلماته رنين نشيد على أفواه العرب.

عادت به حليمة، ليقضي بقية حياته مع آمنة، وهناك وقفت حليمة تودِّع ربيبها وحبيبها الصغير، الذي أحبته أكثر من حبات قلبها وفلذات أكبادها.. وقفت طويلاً.. وكانت لحظات الوداع المريرة، فَقَبَّلَتْهُ ثم عادت إلى موطنها بني سعد، وهي ترى في كل ركن من حولها طيفه الوسيم.. وفي كل خير يحوطها أثراً لبركته التي عمَّت ديارها ومرابع قومها.

والتأم الشمل بعد الفُرقة والنوى، وعاش محمد في كنف أمه وجده.. وكانت أيام هناءة وسعادة، شعر الطفل خلالها بحنان أمه الغامر الطافر.. يرعاه في كل حركة من حركاته، ويسير معه

في كل نظرة من نظراته وكان يتردد كثيراً إلى جده، سيد قريش وزعيمها، ويتطلع إليه وهو متربع على عرش قومه زعيماً أوحداً، فتغمره الفرحة وتهزُّه السيادة التي خلق عليها، لأن يكون كجده شبيةِ الحمد وسيدِ البطحاء أبي الحارث عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف.

فمما يُروى أن عبد المطلب كان يُبسط له فراش إلى جانب جدار الكعبة، فيجلس عليه في ظلها، وتحدق بِفِرَاْشِهِ بنوه وغيرهم من سادات أسرته، وكان الفراش يفرش له، ويجتمعون إليه قبل مجيئه، فيأتي النبي ﷺ وهو طفل يدبُّ فلا يثنيه عن الفراش أحد، حتى يجلس عليه، فيزيله أعمامه، فيبكي حتى يردوه إليه. فطلع عليهم عبد المطلب وقد أزالوا محمداً ﷺ عن الفراش، فقال: "ردُّوا ابني إلى مجلسه، فإنه يحدِّث نفسه بملك عظيم، وسيكون له شأن " فكانوا لا يردونه عنه حضر عبد

المطلب أو غاب [1].

عاش محمد أياماً قليلة مع أمه الأرملة الحزينة.. لا تجد الابتسامة إلى فمها طريقاً، وكانت ترى في وليدها الصغير ما يذكر بزوجها المعمود، الذي أحبته وأحبَّها كأحسن ما يكون الأزواج !.

وهزَّها الحنين إلى زيارة أهلها، فأخذت معها ابنها الوحيد، وانطلقت إلى المدينة، فلما أتمت زيارتها.. ساقها الشوق إلى زيارة قبر زوجها ومرقد روحه الطاهرة.. وهناك وقفت أمام قبره.. والتفت إلى ابنها وقالت في نفسها: هو ذا ابنك يا عبد الله.. ابنك الذي تحسدني عليه قريش كلها.. انظر إليه.. إنه ثمرة زواجنا الميمون المبارك.. فاسعد به ـ يا عبد الله ـ ولتهنأ روحك الطاهرة.

---

(1) أنباء نجباء الأبناء: للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد الملكي الصلقي .

تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ط1 / 1980م ص 6-7.

وسقطت قطرات من ماء عيني آمنة.. دموع زوجة محبة، وأم حنون، وفتاة كان حظها العاثر أن تعيش بلا زوج، وأن ينشأ وليدها يتيماً فاقداً حدب الأب ورعايته .

ثم دلفت قاصدة بيتها في مكة، وفي الطريق.. وقف الركب المسافر ..فآمنة تعاني آلاماً وجيعة لا تكاد تطيقها.. واشتدَّ بها الألم شيئاً فشيئاً وأحسَّت بدبيب الموت يسري في أوصالها، فاضطجعت على الرمال.. ومحمد ﷺ – غلام يفعٌ له ست سنين – عند رأسها فنظرت أمه إليه.. ونظر إليها.. والتقت النظرات ببعضها، وكأنها نظرات الوداع الأخير تركع في المحاجر، تستمطر الدموع السخية الطاهرة !.. نظرت آمنه إلى حبة قلبها وثمرة فؤادها، فرأت فيه طفلاً لا كغيره من الأطفال.. كل شيء أوحى إليها بذلك، منذ أن كان جنيناً في أحشائها وحتى ولادته.. بالأمس واليوم.. نظراته.. تبسمه.. دموعه.. مشيته.. لعبه !!

كل ذلك يُومِئ إليها بمستقبل وضيء ينتظره في الطريق اللاحب المحفوف بالأشواك، وأول هذه الأشواك أنه يتيم الأب، وسيغدو يتيم الأبوين معاً !.

بكت آمنة.. هذه المرة كانت دموعها الأخيرة.. ونظرت إلى محمد، ومدَّت يدها إليه تتحسسه وتتلمسه، ثم قالت :

بـارك الله فـيـكَ مـن غـلامِ ... يا ابن الذي من حَوْمَةِ الحِمامِ(1)
نجـا بعون الملـك المنعـامِ ... فُودِي(2) غداةَ الضرب بالسهامِ
بـمائـة مـن إبـل سَـــوامِ(3) ... إن صَح ما أبصرت في المنامِ
فـأنـت مـبـعـوث إلى الأنـام ... من عنـد ذي الجلال والإكرام
تُـبـعـث في الحـلَ والحـرامِ ... تبعـث في التحقيق والإســلامِ

---

(1) حومة الحمام: ج (حومات القتال): أشدَّ موضع فيه لأن الأقران يحومون حوله .
والحمام: الموت وحومة الحمام: هجوم الموت .
(2) فوُدي: المصدر فداء ، وهو ما يعطى من مال ونحوه عوضاً للمفدى .
(3) السوام: ج سوائم ، وهي الماشية والإبل الراعية .

دينِ أبيك البرِّ إبراهامِ[1] فالله أنهاك عن الأصنام
أن لا تواليها مع الأقوامِ

ثمَّ قالت : كل حيّ ميت، وكل جديد بال، وكلُّ كثير يفنى ...وأنا ميتة وذكْري باقٍ، وقد تركتُ خيراً وولدت طُهْرَاً !!..

ثم لفظت أنفاسها الأخيرة، وأغمضت عينيها لتنام نومتها الأبدية بعد أن تسلم الروح لبارئها، وقد تركت خير إنسان في هذا الوجود .

نظر إليها الطفل اليتيم .. وهي نائمة .. ناداها.. فلم تجبه هذه المرة .. وأعاد نداءه عليها .. لكنها لم تجبه أبداً !! .. ولأول مرة شعر محمد ﷺ بقساوة الموت .. ومرارة اليتم .. بكى اليتيم .. وتجاوبت لرجع بكائه رمال البيد وتلالها .. فإذا الدنيا قتام ترتدي حلةً سوداء كليل الأحزان السرمدي .

---

(1) إبراهام: إبراهيم (نبي الله عليه السلام).

وعاد محمد بعدما دُفنت أمه بالأبواء[1].. عاد ليعيش في كنف جده عبد المطلب، الذي سيكون له بمثابة الوالدين اللذين فقدهما، وهو ما يزال بعد صغيراً.. جِدٌّ صغير !!..

عاش مع عبد المطلب يتلقى كل رعاية، كما تلقى عنه السيادة ومكارم الأخلاق وعزائم الرجال .

وفي يوم قال عبد المطلب لمحمد: ألا ذهبت يا ولدي إلى حفص بن مرة، وذَكَّرْتَهُ بما لنا في ذمته، فلعلَّه موفٍ بنصيبه في

---

(1) الأبواء: قرية من أعمال الفرع من المدينة ، بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ، ثلاثة وعشرون ميلاً . وفي الأبواء كان قبر آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ وكان السبب في دفنها هناك أن عبد الله والد رسول الله ﷺ كان قد خرج إلى المدينة يمتار تمراً ، فمات بالمدينة ، فكانت زوجته آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن كعب بن لؤي بن غالب ، تخرج في كل عام إلى المدينة تزور قبره . فلما أتى على رسول الله ﷺ ست سنين ،خرجت زائرة لقبره ومعها أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ فلما صارت بالأبواء منصرفةً إلى مكة ماتت بها .

(معجم البلدان – ياقوت الحموي) : م/ 1 ص79.

الرِّفَادة [1]. فقد نفدت الماشية والضيفان يتزايدون.

وقال قائل لعبد المطلب: ألم تجد إلا هذا الصبي الهادئ ترسله إلى شر خلق الله، أكثرهم لؤماً وأشدهم قبضاً ليده، وأبخلهم جِبِلَّةً ؟.

ولكن عبد المطلب رأى في حفيده ما لم يره فيه غيره.. وذهب محمد وقصد دار حفص بن مرة.. ووجد باب الدار مفتوحاً، ولكنه وقف وصفق بيديه ونادى: يا عمِّ حفص. وكان حفص جالساً على أريكة وهو مكفهر الوجه غضباً وضيقاً، فقد جاء المخاض لناقته المفضَّلة، وهي تعاني آلام الولادة منذ الليل، وتعسرت ولادتها.. فأجابه حفص بن مرة: ادخل (وكان أمر استئذانه غريباً عند العرب).

فقال له: السلام عليك يا عماه !.

---

(1) الرفادة: المنحة والعطاء، تُجعل لحجاج الكعبة .

فقال حفص: وعليك السلام يا ولدي !.

وقبل أن يكمل حديثه، قاطعه شيخ رعاته صائحاً.. أبشر يا سيدي، فقد ولدت الناقة وهي سالمة صحيحة، فصاح حفص قائلاً: ما أجمل وجهك، وأجمل فَأْلَك.. لقد كانت متعسرة منذ أمس، وما إن وطئت قدماك داري حتى ذهب العسر وجاء المولود.. ما حاجتك يا ولدي، وإني لقاضيها ؟.

فقال محمد ﷺ: إن جدي عبد المطلب يقرئك السلام ويستوفيك العهد.

وضحك حفص قائلاً: ما أفصح لسانك، وما أرقَّ مطالبتك.. إني لموفٍ بالعهد ومزيد عليه، فما مثلك يطلب ومثلي يبخل.. لتحفظك الآلهة..

ونادى الرعاة: أيها العبيد.. قودوا خمساً إلى عبد المطلب، واحملوا ولده على واحدة، هي مني إليه !!.

وعاد محمد إلى جده وقال هامساً: إن عمي حفصاً، يقرئك السلام ويقول: إن رغبتم في المزيد، فإنه لجواد بها وسعيد[1].

وابتسم عبد المطلب، وهو يرى محمداً ﷺ قد بلغ مبلغاً لا يسبقه إليه الرجال العقلاء.. ولكن الفرحة لم تدم للاثنين، فقد دعا داعي الموت سيد قريش، ليلحق بمن سبقه إلى دار البقاء والخلود.

وانتقل محمد ليعيش في ظل عمه أبي طالب، الذي خلف أباه في زعامة قريش في مكة.. وكان كفؤاً لذلك، فأبو طالب قد ورث السيادة والمجد والسؤدد كابراً عن كابر .. وإن فيه من الخلال الحميدة ما يجعله سيداً بلا منازع دون رجالات قريش وساداتها.

---

(1) محمد ﷺ في طفولته وصباه: محمد شوكت التوني . عالم الكتب ـ القاهرة ـ ط1 ص262 – 266.

وعندا أبي طالب عاش محمد هنيئاً سعيداً، وإن لم يكن ذلك ليعوضه فقد الأبوين، فإحساسه باليتم كان يحفر مجراه عميقاً في نفسه فيزيدها رهافه وشفافية. وبين أبناء عمه الصغار تربى محمد ﷺ على الأدب الجم والعفة والحياء.

فمما يُرْوَى ذلك أن أبا طالب كان يُقَرِّب إلى الصبيان بصَحْفَتِهم أول البُكْرَة[1]، فيجلسون وينتهبون، ويكف محمد ﷺ يده لا ينتهب معهم، فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه على حده.

وأدرك أبو طالب أن لهذا الغلام شأناً عجيباً.. كل شيء فيه أوحى له بذلك، فأراد أن يتحقق من ظنونه، فانطلق آخذاً معه محمداً ﷺ وكانت وجهته رجلاً من (لهب) من أزد شنوءة، كان هذا الرجل عائفاً [2] يتفرس في الناس ولا سيما الغلمان، وكان إذا

---

(1) البُكْرَة: الغدوة وهي أول النهار إلى طلوع الشمس . (الوسيط :ج1 / 66).

(2) العائف: هو الذي يتفرس في الإنسان فيخبر بما يؤول إليه حاله.

قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم، ينظر إليها ويعتاف لهم فيهم. فأتى إليه أبو طالب ومعه محمد ﷺ وهو غلام مع من يأتيه، فنظر إلى محمد ﷺ ثم شغله عنه شيء، فلما فرغ قال: الغلام.. عليَّ به فلمَّا رأى أبو طالب حرصه عليه غيَّبه عنه، فجعل يقول: ويلكم!.. رُدُّوا عليَّ الغلام الذي رأيت آنفاً، فو الله ليكوننَّ له شأن.. فلما سمع أبو طالب ذلك أخذ محمداً ﷺ وعاد إلى بيته.

وذات يوم، وبينما كان محمد ﷺ وهو صبي يلعب مع الصبيان لعبةً تُسمى (عظم وضَّاح)، وهو أن يأخذ عظماً شديد البياض، فيلقونه بعيداً ثم يطلبونه، فمن وجده ركب أصحابه.. فمر يهودي ورأى محمداً ﷺ يركب الجميع ولا يركبونه.. ويقود رفاقه ولا يقودنه، فدعاه اليهودي إليه.. فأتاه.. ثم تأمله وقال: والله لتقتلنَّ صناديد أهل هذه القرية يا غلام !!.

إن العظمة كانت تبدو في عيني محمد ﷺ مشرقة وضَّاءة.. تسكب في أعين الآخرين راحة وطمأنينة، فما يشك أحد بأن لهذا

اليتيم حضوراً خاصاً في الحياة.. تلك الحياة التي أنعمت عليه بأشياء كثيرة.. وأخذت منه أشياء أُخَر !.

فقد روي أن قريشاً اجتمعت ساداتها في دار الندوة يتشاورون في مهم نزل بهم، وحضرهم (قَيْل) [1] من أقيال اليمن، فدخل محمد ﷺ دار الندوة وله من العمر اثني عشرة سنة، يدعو عمه أبا طالب، فأشار إليه فنهض فناجاه وخرجا معاً.

فقال القَيْل: يا معشر قريش !.. من هذا الغلام الذي يمشي تكفيئاً [2] ولا يلتفت، وينظر مرة بعيني لبوة مجربة، ومرة بعيني عذراء خَفِرَة [3].

---

(1) القَيل ، هو الملك من ملوك حمير ، يَتَقَيَّل مِنْ قَبْله من ملوكهم أي يُشْبهه .

(2) تكفيئاً: يقال (تكفَّأ في مشيته) ماد وتمايل .

(3) خفرة: شديدة الحياء .

قالوا: هو يتيم أبي طالب وابن أخيه. ثم قالوا له: إن وصفك هذا لينبئ عن عظمة في صدرك له. فقال: أما ونسر[1]، ولئن بلغ هذا الغلام أشدَّه ليميتنَّ قريشاً ثم ليحيينَّها، ولقد نظر إليكم نظرة لو كانت سهماً لانتظم[2] أفئدتكم فؤاداً فؤاداً، ثم نظر إليكم أخرى، لو كانت نسياً لأنشرت[3] الموتى.

فقال له رجل من القوم: حسبك يا قيل حمير، فإن الأمر غير ما تظن !..

فقال: سترون ما أقول لكم[4] .

إن السيادة كانت تلوح في حبين محمد ﷺ وهو صغير.. وكانت عيناه تطفحان بتعابير لا يرقى إليها إدراك إنسان عادي

---

(1) نسر: صنم كانت تعبده حمير.

(2) انتظم: اخترق.

(3) أنشرت: أحيت الموتى .

(4) أنباء نجباء الأبناء: ص 25.

الشعور.. بليد الحس.. إن نظرة واحدة من عينين مرآتهما قلب نقي مشرق، تكفي لتشير للمرء بأن هذا الغلام نسيج وحده في الحياة..

ولعلَّ أكثم بن صيفي التميمي[1] حكيم العرب، كان يملك هاتين العينين النافذتين إلى البعيد فيما وراء المجهول.. فقد حجَّ مرة وزار أبا طالب ومحمد ﷺ في سن الحُلْم يتبع عمه.

فقال أكثم لأبي طالب: يا ابن عبد المطلب ما أسرع ما شبَّ أخوك (يعني محمداً ﷺ).

أبو طالب: إنه ليس أخي.. ولكنه ابن أخي "عبد الله ".

---

(1) أكثم بن صيفي (ت9هـ / 630م): أحد حكماء العرب من تميم في الجاهلية ، وأكثرهم ضرب مثل ، كان سديد الرأي ، قوي الحجة ، رآه كسرى أنو شروان فقال: لو لم يكن للعرب غيره لكفى. عدَّه العرب من المعمرين، قصد المدينة ليسلم ، فتوفي في الطريق .

أكثم: هو ابن الذبيح.

أبو طالب: نعم !..

أكثم: إني كنت رأيته في حِجْرِ عبد المطلب يوم أرسل الله السحاب إلى بلاد مضر، فظننته ابنه.

(وجعل أكثم يتأمَّل محمداً ﷺ ويتوسَّمه [1]).

ثم **قال**: يا ابن عبد المطلب !!.. ما تظنون بهذا الفتى.

أبو طالب: إنا لنحسن الظن به ! وإنه لحييٌّ جري، وفيٌّ سخي.

أكثم: هل غير ما تقوله يا ابن عبد المطلب ؟

---

(1) يتوسَّمه: ينظر إليه نظر متفرس ، كأنه يطلب السمة ، أي العلامة الدالة على الشيء .

أبو طالب: نعم ! إنه لذو شدة ولين، ومجلس ركين، ومفصل مبين[1].

أكثم: هل غير ذلك يا ابن عبد المطلب ؟

أبو طالب: نعم ! إنا لنتيمَّن بمشهده، ونتعرف البركة فيما لمس بيده.

أكثم : هل غير ذلك يا ابن عبد المطلب ؟.

أبو طالب: نعم ! إنه لغلام بعدُ، وأحرى به أن يسود، ويتخرَّق بالجود[2]، ويعلو جده الجدود[3].

---

(1) مجلس ركين ومفصل مبين: الركانة وقار الحلم وطمأنينته . ومفصل مبين المفصل: اللسان الفصيح ، والمبين: الواضح بالقصد .

(2) يتخرَّق بالجود: أي يتوسع به ويفيضه في كل جهة ، والخرق: الواسع الجود .

(3) يعلو جده الجدود: الجد ، العظمة وعلو القدر .

أكثم: ولكني أقول غير هذا يا ابن عبد المطلب !.

أبو طالب: قل، فإنك نقَّاب غيب[1] وجَلَّاء ريب[2].

أكثم: أخلق بابن أخيك أن يضرب العرب قامطه[3]، بِيَدٍ خابطه، ورِجْلٍ لابطه[4]، ثم يَنْعِقُ[5] بهم إلى مَرْتَعٍ مريع[6]، وورد تشريع[7]،

---

(1) نقاب غيب: النقاب والنقيب ، من يصيب بظنه ما خفي على غيره .

(2) جلاء ريب: أي كاشف شك .

(3) العرب قامطة: أي جامعة ، والقمط ، وهو الجمع والشد.

(4) بيد خابطة ورجل لابطة: الخبط باليد ، واللبط ، الضرب بالرجل .

(5) ينعق: أي يصرخ .

(6) مرتع مريع أي حيث ترتع الراعية ، تأكل كيف شاءت ، والمريع: هو الخصيب.

(7) ورد تشريع: من الورد وهو أن يؤتى بالماشية الواردة إلى ما ظاهر وجه الأرض فتمكن من الدخول فيه ثم تشرع شريعته ، أي مدخله كيف شاءت بغير كلفة .

فمن اخروط[1] إليه هداه، ومن احرورف[2] عنه أرداه[3].

أبو طالب: حسبك يا أكثم.. فإن عندنا لذروا[4] من ذلك[5].

وكان الذي تفرَّس به أكثم بن صيفي حكيم العرب، فتاريخ محمد ﷺ وسيرته العاطرة، شهدت به تلك الكلمات التي كانت في يوم من الأيام نظرة سارية في عالم الغيب البعيد..

ولم تكن هذه الأمارات وحي إنسان وحسب.. بل إن العناية الإلهية التي صنعت محمداً على عينها، كانت تحفظه وترعاه،

---

(1) اخروط إليه: معناه أسرع إليه وانقاد . والأخرواط: السير السريع الذي يركب السائر فيه رأسه ولا يلتفت .

(2) احرورف عنه: هو مثل انحرف عنه سواء .

(3) أرداه: أهلكه .

(4) لذروا من ذلك: أي طرفاً من العلم به .

(5) أنباء نجباء الأبناء: ص 25- 27.

وتسكب عليه ودَّها وعطفها، ليكون رسول الإنسانية في الغد القريب !.

فها هو غلام مع الغلمان، ينقل الحجارة لبعض ما يلعب به مع غيره من الصبيان.. وكلُّهم قد تعرَّى عن ثيابه، وأخذ إزاره [1] فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، وحار محمد ﷺ أيفعل مثلما يفعلون.. وفيما هو يفكر الأمر مقبلاً ومدبراً، إذ لكمه لاكمٌ لا يراه لكمةً وجيعةً، ثم قال له: شُدَّ عليك إزارك، فأخذ محمد ﷺ إزاره وشدَّة على نفسه، ثم تابع حمله للحجارة على رقبته، وإزاره عليه من بين أصحابه جميعاً [2].

---

(1) الإزار: الثوب.

(2) السيرة النبوية: لابن هشام – تحقيق مصطفى السقا – إبراهيم الأبياري – عبد الحفيظ سبلي، دار القلم – بيروت – لبنان ص 194 – 195.

أما عن شجاعته وإقدامه، فيحدثنا تاريخه الوضيء عندما أتت له بضع عشرة سنة، أنه خرج في سفر مع عمه الزبير[1]، فمرُّوا بوادٍ فيه فحل من الإبل يمنع من يجتاز، فأراد الانحراف. فقال لهم محمد ﷺ: أنا أكفيكموه !. فدخل أمام الركب، فلما رآه البعير برك وحك الأرض بكَلْكَلَتَه[2]، فنزل عن بعيره وركبه، فسار حتى جاوز الوادي ثم خلى عنه.

فلما رجعوا من سفرهم مرُّوا بوادٍ مملو بماء يتدفق، فوقفوا، فقال محمد ﷺ: اتبعوني !. ثم اقتحمه، واتبعوه، فأيبس الله الماء. ولما وصل الركب مكة تحدثوا بذلك.. فقال الناس: إن لهذا الغلام لشأناً عظيماً [3].

---

(1) الزبير بن عبد المطلب: أكبر أعمام النبي العشرة ، كان من شعراء قريش ،إلا أن شعره قليل .

(2) كَلْكَل: ج كلاكل: وهو الصدر أو ما بين الترقوتين . من الفرس: ما بين محزمه إلى ما مسَّ الأرض منه إذا ربض.

(3) الوفا بأحوال المصطفى : لأبي الفرج عبد الرحمن الجوزي . تحقيق مصطفى عبد الواحد . دار الكتب الحديثة – مصر ط 1 / 1966 م/ 1.

تلك كانت سيرة محمد ﷺ وهو بعد غلام صغير.. غلام كان نسبه من أسمى أرومات العرب وذؤابتها.. أما نموه فكان في مجاري الشمس وبين النجوم. وقد أمرعت مواطئه ينابيع وغصوناً.

كل من رآه أدرك ذلك.. العربي.. والنصراني.. واليهودي.. كلهم رأى عينيه الساربتين السابحتين في ذلك العلا الرحيب !. تسألان النجوم أين مداها ؟..

محمد ﷺ الرسول ووحي السماء إلى الأرض.

اليتيم ! ولـمَّا تطأ قدماه أرض الإنسان.

محمد ﷺ، غُرَّة النور في جبين الوجود، وزمزم إكسير الحياة، يبعث النشور في عالم الأموات !!.

2. الصِّدِّيق الأصغر

الصِّدِّيق الأصغر

أبوه الزبير بن العوَام[1] ﷺ، حواريُّ رسول الله ﷺ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. وأمه أسماء بنت الصِّديق رضي الله عنهما، أسماء الفتاة المهاجرة ذات النطاقين.

وجدُّه أبو بكر الصديق ﷺ، خليل رسول الله ﷺ وخليفته الأول. وخالته أم المؤمنين عائشة، زوج رسول الله ﷺ.

---

(1) الزبير بن العوام (ت 36 هـ - 656م): قرشي أسدي، ابن عمة النبي ﷺ . اعتنق الإسلام بأول صباه . صحابي من العشرة المبشرين بالجنة، حواريُّ النبي ﷺ ، هاجر إلى الحبشة ثم المدينة. شارك في جميع الغزوات مع النبي ﷺ من أهل الشورى بانتخاب الخليفة . انسحب من قتال علي في الجمل . اغتاله ابن جرموز وهو يصلي.

إنَّه عبد الله بن الزبير[1] الصحابي.. الخليفة.. المجاهد.. الشهيد !..

عبد الله.. هذا الذي حاز الشرف من أركانه، فأضحى وقد سِيْقَت إليه المنى والأماني.

سمَّاه رسول الله ﷺ باسم جده أبي بكر الصديق.

وكنَّاه أبا بكر بكنيته.. فكان هو الصدِّيق الأصغر.

---

(1) عبد الله بن الزبير (1 – 73 هـ / 622 – 692م): ابن الزبير العوام ، وأمه أسماء ، كبرى بنات أبي بكر ، وأخت عائشة وأخت زوج النبي ﷺ . اشترك في فتوحات فارس ومصر وشمال أفريقيا. حارب إلى جانب عائشة في معركة الجمل . عاش في المدينة وعارض خلافة يزيد الأول ابن معاوية. ثار على ولاة الأمويين في الحجاز ، وأعلن نفسه خليفة . حافظ على نفوذه في العراق بعد معركة "مرج راهط " ثم قضى عليه الحجاج وأخضع مكة والمدينة لنفوذ البيت الأموي .

وعده المسلمون أول مولود للمسلمين في عاصمة الإسلام الأولى.

عبد الله بن الزبير.. رحلة طويلة في عالم الإنسان !!. فقد شارك المؤمنين في هجرتهم إلى المدينة المنورة، وهو لا يزال جنيناً في بطن أمه أسماء ذات النطاقين. ولم تمض عليه فترة في رَحِم أمه حتى خرج إلى النور وليداً.. فاستبشر المسلمون وفرحوا به، وحملوه وطافوا به في طرق المدينة، يرفعونه فوق رؤوسهم، حتى يراه يهودها، فيكون غيظاً لهم، وليكون وثيقة تدمغ عقولهم ببرهان لا مِراء فيه، ذلك أن يهود المدينة أشاعوا أن كهنتهم قد سحروا المسلمين عند قدومهم إلى المدينة المنورة، وأنهم قد سلطوا على نسائهم العُقْم فلن يلد لهم فيها مولود[1].

---

(1) الأوائل في حضارة الإسلام، سيف الدين الكاتب . منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ط3/ 1986م ، ص 7ـ20 .

وجاء هذا المولود ليكون آيةً تَصِمُ كفرهم، وتدحض دعواهم الكاذبة.. وبعد أن طاف به المسلمون، حملوه إلى رسول الله ﷺ، فَسُرَّ به وقَبَّلَهُ، ثم حَنَّكه بتمرة لاكها في فمه الشريف الزكي، ودعا له وباركه، ثم أخذه جده الصديق الأكبر، فأذَّن في أذنيه، وطاف به شوارع المدينة ومسالكها، فَكبَّر المسلمون يومئذ حتى ارتجَّت المدينة فرحاً به رضي الله عنه.

هكذا كان مولده على مرأى الناس ومسمعهم، فرحاً وسروراً وسعادة. وتمضي الأيام.. وكان أول نُطْقِ هذا الوليد: السيف.. السيف !!.. ولمَ السيف ؟ تلك قصة غريبة، يطول جوابها، لأن الأيام وحدها تفسِّر غامض الأشياء !.

وتمضي الأيام أكثر.. ويبلغ عبد الله مبلغ الصبيان، فإذا هو فتى بارع.. وسيم.. تبدو عليه أمارات المجد والسؤدد.. فجيء به بغلمان من قريش لمبايعة رسول الله ﷺ.. حيث أشار الصحابة

على النبي ﷺ، فقالوا له: لو بايعتهم يا رسول الله !. فتصيبهم بركتك[1]، ويكون لهم ذكرٌ!!..

فوافق النبي ﷺ على المبايعة. فلما أتى الصبية أحجموا جميعهم بعد أن أتوا، هيبة من الرسول ﷺ، و لكن صبياً واحداً من بين هؤلاء الأُغَيْلِمَة أقدم دون خوف أو وجل، وكان أولهم اقتحاماً، هو عبد الله بن الزبير، فرأى رسول الله ﷺ ما هو عليه من جرأة وإقدام.. فتبسم وقال :" إنه ابن أبيه " في الجرأة والفطنة والإيمان.

وتمضي الأيام أكثر.. فأكثر، وأصبح عبد الله فتى يافعاً.. لم تبخل عليه الحياة بالذكاء والإيمان والفتوة.. فقد أتى رسول الله

(1) جمل من التاريخ .

ﷺ مرةً وهو يحتجم[1].. فلمَّا فرغ رسول الله ﷺ قال: " يا عبد الله! اذهب بهذا الدم فأهرقه[2] حيث لا يراك أحد ".

وأخذه عبد الله، ونظر حوله.. ثم نظر في الدم.. وكان الحديث نجوى.. والله إن الدم لأقدس من أن يُدَسَّ في التراب، أو يُراق في نهر من أنهر المدينة، ونظر حوله.. ولم يدم تفكيره كثيراً، فتلك أمنية طالما تمنَّاها هو وكل مسلم، فعمد إلى الدم وشربه كاملاً، وعاد إلى رسول الله ﷺ، فلمَّا رآه النبي عليه الصلاة والسلام، أدرك ما حدث فقال :

ـ "يا عبد الله !.. ما صنعت بالدم ؟".

ـ جعلته في أخفى مكان علمتُ أنه يخفى عن الناس !!..

---

(1) الحجامة: هي المداومة والمعالجة بالمِحْجَم ، وهو شيء كالكأس يوضع على الجلد فيحدث تهييجاً ويجذب الدم أو المادة بقوة . والمَحْجَم ، هو موضع الحجامة من البدن .

(2) أهرق: أهرق الماء صبَّه .

ـ " لعلك شربته " ؟.

ـ نعم: شربته يا رسول الله !.

ـ " ولِمَ شربت الدم " ؟.

ـ إني شربته لأزدد به علماً وإيماناً.. وليكون شيء من جسد رسول الله ﷺ في جسدي، وجسدي أولى به من الأرض.

ـ " أبشر يا عبد الله !!. ـ لا تمسُّك النار أبداً.. ويلٌ لك من الناس.. وويل للناس منك !!. "

رأى رسول الله ﷺ في هذا الفتى الصغير، ما لا يراه في غيره من صبيان المسلمين، فأيقن أن له شأناً في الحياة، وأن فتنة ستحيط به. فقال له: " ويلٌ لك من الناس.. ويل للناس منك " والسيفُ الذي كان أول نطقه، سيكون برهان قَالَةِ[1] رسول الله ﷺ.

---

(1) القالة: هي القول الفاشي في الناس خيراً كان أو شراً.

وذات يوم.. وبينما كان عبد الله يلعب مع أترابه[1] من الصبيان، يمرُّ الفاروق عمر بن الخطاب أيام خلافته، وكان عبد الله وقتها ابن خمس عشرة سنة وربما أقل من ذلك. فإذا بالصبية يفرون من خليفة المسلمين عمر، وبقي عبد الله بن الزبير واقفاً في مكانه لا يريم ولا يضطرب !. فأقبل عليه عمر بن الخطاب وقال له:

ـ ما لكَ لم تفرَّ مع أصحابك يا غلام ؟.

ـ (ينظر إليه عبد الله ويبتسم بهدوء وطمأنينة ويقول): يا أمير المؤمنين !. لست مذنباً فأخافك، وليست الطريق ضيقة فأوسع لك فيها !!.

وتمضي الأيام أكثر.. حيث البعيد الآتي :

---

(1) الأتراب: يقال: (فلان ترب فلان) أي ولد معه فهو في مثل سنه .

وفي بيت الله الحرام.. حيث الشهداء والقتلى في كل مكان.. والدماء تسيل أنهاراً ووديانـاً، ولو نظرت إلى البيت المحرَّم حينها، لأدركت معنى استباحة الدماء في جنب الله، وعند أقدس مكان وأطهره على الأرض !.

وفي وسط المشهد الدموي، سترى خشبة مضمخة بالدماء، معلقاً عليها جثة شيخ مسن كبير، قد تجاوز السبعين، وحفرت السنون على وجهه السمر أخاديدها العتيقة.. وقد حُزَّ رأسه بسيوف كثيرة.. لكن ابتسامة واحدة لا تزال ترتسم على هذا الثغر المندى العاطر.. لأن ريق رسول الله ﷺ قد حَنَّكَ هذا الفم الباسم الضليع [1]!.

تلك الجثة كانت جثة عبد الله بن الزبير.. أول مولود للإسلام في المدينة المنورة.

---

(1) الضليع :الواسع .

وابن حواريَّ رسول الله ﷺ. وابن أسماء ذات النطاقين. وحفيد الصديق أبي بكر، وشارب دم رسول الله ﷺ !!. تلك الجثة كانت جريمة طاغية بني أمية، وسفاح التاريخ.. الحجاج بن يوسف الثقفي[1]، الذي رمى الكعبة بالحجارة والمنجنيق !!. وهكذا.. تحققت نبوءتان: نبوءة عبد الله نفسه عندما قال أول كلمة له: السيف.. السيف.. وكان موته بالسيف.

والثانية: نبوءة رسول الله ﷺ " ويل لك من الناس.. وويل للناس منك !!.."

---

(1) الحجاج بن يوسف الثقفي (ت95 هـ / 714م): قائد وخطيب عربي ، ولد في الطائف ، واشتهر بولائه للبيت الأموي ، ولاه عبد الملك بن مروان إمرة جيشه ، فقضى على ابن الزبير وابن الأشعث ، وتولى مكة والمدينة والطائف والعراق . أسَّس مدينة واسط في العراق وتوفي فيها . عني بشؤون الري والإصلاح النقدي . اشتهر بالخطابة وعرف عنه البطش والدكتاتورية والشدة في الحكم .

3. بطولة وفداء

بطولة وفداء[1]

وقف المسلمون يتجهزون للمعركة الفاصلة في تاريخ الإسلام.. أول معركة تكون جهاراً، وصرخةً مدوِّيةَ في وجه أعداء الدعوة، كان جلهم من الشباب.. الشباب المتوثب نحو الخلود.. الظامئ للشهادة.

كانوا أقماراً في الورى.. لكنهم أسود في الوغى.. وقفت كتائب الرحمن مرور القائد العظيم.. والسياسي الفذ.. والمعلم الحكيم.. والمقاتل الشديد.. والعبقري الرسول !!.. ليتفقد أحوال الجيش الزاحف إلى الموت، وليرى استعدادهم المادي

---

(1) روى القصة أبو يعلى والحاكم وابن سعد في الطبقات . ووردت القصة في " صفوة الصفوة": 1/ 394. و " من كنوز الإسلام" لأحمد القلاس، ص 83 ـ 84 . و " موسوعة عظماء حول الرسول " لخالد العك ، ص1455 .

والنفسي، وليبث في روحهم وقوداً من شعل الإيمان والأمل.. الأمل المرتقب في البعيد القريب!.

كانت معركة بدر تفتح أبوابها لاستقبال خير مقاتلين عرفتهم المعارك وشهدتهم حروب الإنسان، كان القتال آخر وسيلة اضطر إليها الرسول وصحبه، ما دام الشرك متغلغلاً في سويداء القلوب وسرادقات الأرواح.

بدر تستصرخ اليوم كل مسلم، حتى يكتب الله النصر للمؤمنين، فخرج الصحابة يحملون بين جنباتهم أنفساً أبيةً.. غاليةً لكنها ترخص في سبيل الله والرسول.

ونفر المؤمنون خِفافاً وثقالاً، نساءً ورجالاً، شيباً وشباناً !!.

ومرَّ الرسول ﷺ يتفقد المسلمين، فاستوقفه فتى صغير بين الجموع يحاول الاختباء خلف ظهور الرجال !!. فأقبل عليه النبي عليه الصلاة والسلام، وسأله عن اسمه فقال: عُمَيْر بن أبي

وقاص[1] يا رسول الله فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال له: ارجع فإنك صغير بعد !.

فبكى عمير بكاءً صامتاً ـ وكذلك بكاء الرجال ـ سالت فيه الدموع على خديه النديين، فنظر إليه النبي ﷺ وأجازه للقتال.

فتبسَّم عُمَيْر وسرت إلى روحه نشوى، أدرك معها أن الجنة ستفتح له أبوابها اليوم.. فالتفت إليه أخوه سعد بن أبي وقاص[2] وقال :

---

(1) عُمَيْر بن أبي وقاص: صحابي فتى ، قديم الإسلام ، شهد بدراً واستشهد بها ، قتله عمرو بن ود العامري ، الذي قتله علي بن أبي طالب يوم الخندق . وقد قتل عمير وهو ابن ست عشرة سنة.

(2) سعد بن أبي وقاص (23 ق هـ ـ 55هـ / 603 ـ 675م): الصحابي الأمير ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأول من رمى بسهم في سبيل الله ، شهد بدراً ، ودافع عن النبي ﷺ في أحد ، وحضر معه المشاهد كلها ، وأحد الستة الذين عينهم عمر لشورى الخلافة . افتتح القادسية ، ونزل الكوفة ، فجعلها خططاً لقبائل العرب . توفي في المدينة وكان إسلامه ﷺ قبل أن تفرض الصلاة ، وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان ثالثاً في الإسلام .

ـ مَالَكَ كنت تتوارى خلف ظهور الرجال عندما مرَّ رسول الله ﷺ ؟.

ـ إني أخاف أن يستصغرني رسول الله ﷺ فيستصغرني فيردني، وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة !.

وكان لِصِغَرِهِ لا يجيد عقد حمائل السيف، فصار أخوه سعد يعقد له حمائل سيفه !.

وأعلن نذير المعركة، ودعا داعي الجهاد.. ورقصت أشباح الموت في معركة بدر. وكان رسول الله ﷺ مُتسنماً [1] عرش الكتيبة الخضراء التي ترنو إلى النصر والظفر، بعزيمة لا تلين وإيمان لا يخبو.

---

(1) تسنم الشيء: علاه وركبه .

ولم تمضِ فترة وجيزة حتى هُزم المشركون شر هزيمة.. وكان الفتح العظيم والنصر المبين.. لجيش التوحيد على جيش الشرك.. للإيمان على الكفر للإسلام على الجاهلية !.

ولـمَّا انتهت المعركة تفقد رسول الله ﷺ شهداء بدر، وكانوا قلة، ولكنهم في معيار الرجولة يقاسون بالأمم.

وكان بين هؤلاء الشهداء، عمير بن أبي وقاص، الفتى الصغير، الذي كان يتوارى خلف ظهور الرجال خوفاً من أن يستصغره رسول الله ﷺ، فيرده عن المشاركة في الجهاد، فَيُحْرَم بذلك الشهادة. رآه رسول الله ﷺ مُسَجَّى[1] على أرض بدر.. لكن روحه كانت تحوم في أعلى عليين.. في مقعد صدق.. عند مليك مقتدر !!.

---

(1) مسجى: مستلقٍ .

4. فِتْيَانٌ حول الرسول

فِتْيَانٌ حول الرسول[1]

كانت الشمس قد أطفلت[2]، وبدأت تميل نحو مكان آخر من الأرض، بينما المسلمون في حركة دائبة، كسرب من النحل لا يكفُّ عن العمل والمضاء.. فقد بلغهم أن المشركين قد عزموا على القتال ثأراً لقتلاهم في بدر الكبرى !.

فمشى رسول الله ﷺ بين المؤمنين، يستطلع استعدادهم المادي والمعنوي، فرآهم حلقاً كثيرة..

فتلك مجموعة تدرب نفسها على القتال والمناورة.

وتلك أخرى تتفقد ما لديها من خيول وأسلحة ودروع.

---

(1) السيرة النبوية: أحمد بن زيني دُحْلان ـ دار الأهلية ـ بيروت ـ 1983 م.م/ 2 ص 36.

(2) أطفلت الشمس: احْمَرَّت عند المغيب .

وفي جانب آخر كن النسوة المُعْتَجِرَات[1] يعددن الطعام والشراب، من أجل تضميد الجراح.

رأى رسول الله ﷺ هؤلاء العُصْبَة المخلصة، التي تسعى إلى الفوز برضاء الله ورسوله، فأحسَّ في دخيلة نفسه بفرح غامر طافر.. هؤلاء النفر.. سيقودون الدنيا يوماً، وسيكون لهم شأن في التاريخ..

وقف رسول الله ﷺ يستطلع الكتائب الزاحفة نحو المجد والخلود.. كان يرقبها بعين ملؤها الحب والحنان.

بالأمس ليلاً كانوا رهباناً، لو نظرت إلى أحدهم في صلاته ودعائه، لتفطَّر قلبك عليه من الحزن، ولأشفقت لحاله، فما خامرك شك بأنه سيموت قبل أن يفرغ من عبادته.

---

(1) المعتجرات: النساء لبست المعجر ، وهو ثوب تشده المرأة على رأسها ، حتى لا يبدو منه ما يحرم على الرجال رؤيته.

واليوم نهاراً هم أسود الوغى وفرسان الحروب، لو نظرت إلى أحدهم.. لرأيت التماع بريق السيوف في عينيه، فكأنما هو يبحث عن حتفه فلا يجده !.

رأى رسول الله ﷺ أصحابه، فأحبهم وأحبوه. وأخلص في دعوتهم. ففدوه بأرواحهم.. ألا إنهم هم الرابحون.. هم الفائزون !!.

وبينما النبي عليه الصلاة والسلام على حاله تلك، إذ أقبل رجل ومعه غلام لـمَّا يتجاوز خمس عشرة سنة، يمشيان تجاه القائد العظيم، ولـمَّا دنا الرجل والغلام من النبي ﷺ قال الرجل:

ـ السلام عليكم يا رسول الله .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله يا أخا الإسلام !. من هذا الفارس الذي يصحبك ؟!.

- إنه رافع بن خديج[1]، أخو بني حارثة، يود أن يكون في الركب المجاهد في أحد.. فهلَّا أذنت له يا رسول الله.

ونظر النبي الله ﷺ إلى رافع، فرآه صغيراً، ولما رأى رافع رسول الله ﷺ ينظر إليه متمعناً، وقف على خفين له فيهما رقاع، وتطاول على أطراف أصابعه، حتى يبدو أكبر سناً، فيقبله رسول الله ﷺ جندياً في جيش المسلمين. لكن النبي ﷺ رَدَّهُ لصغر سنه. فقال عمُه للنبي ﷺ :

---

(1) رافع بن خديج: الأنصاري الخزرجي المدني . توفي (74 هـ / 693م) صاحب النبي ﷺ اسْتُصْغِرَ يوم " بدر" وشهد أحد والمشاهد كلها ، وأصابه سهم يوم "أحد" فانتزعه فبقي النصل في لحمه إلى أن مات بآخر عمره . توفي سنه ثلاث وسبعين أو أول سنة أربع وسبعين ، وهو ابن ست وثمانين سنة. وعن امرأة رافع بن خديج ، أن رافعاً رُمِيَ مع رسول الله ﷺ (يوم أحد أو يوم خيبر شك عمرو) بسَهْم في ثُندته ، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله انزع السهم . فقال " يا رافع ! إن شئت نزعت السهم والقطبة جميعاً ، وإن شئت نزعت السهم وتركت القطبة ، وشهدتُ لك يوم القيامة أنك شهيد ". قال : فنزع رسول الله ﷺ السهم ، وترك القطبة ، فعاش بها حتى كان في أيام معاوية ، فانتفض به الجرح فمات ، وقيل في أيام عبد الملك ابن مروان .

ـ يا رسول الله ! إن رافعاً رامٍ مجيد.. فتبسم رسول الله ﷺ، وأجازه للقتال. وكان لرافع صديق من أترابه ولداته، اسمه سمرة بن جندب[1]، رأى رسول الله ﷺ قد أجاز رافعاً فأقبل عليه وقال: يا رسول الله ! فأنا والله أصرع رافعاً.. فهلَّا أذنت لي في المعركة ؟! .

---

(1) سمرة بن جندب بن هلال الفزاري: له صحبة ، أدرك النبي ﷺ في صغره ، وكان من حلفاء الأنصار ، وكان رسول الله ﷺ يستعرض غلمان الأنصار كل سنة فمَر به غلام فأجازه في البعث (هو رافع بن خديج) وعرض عليه سمرة بعده ، فردَّه ، فقال سمرة ، لقد أجزت هذا ورددتني، ولو صارعته لصرعته !!.. قال: " فدونكه " !! فصارعه ، فصرعه سمرة فأجازه . وكان ذلك يوم أحد على الأرجح . وغزا سمرة بن جندب مع رسول الله ﷺ غير غزوة ، وسكن البصرة ، وكان زياد بن معاوية يستخلفه عليها إذا سار إلى الكوفة ، وعلى الكوفة إذا سار إلى البصرة. وكان شديداً على الخوارج ، إذا أتى على واحد منهم قتله ، فالحرورة ومن قاربهم في مذهبهم يطعنون عليه ، وينالون منه: وكانت وفاته في خلافة معاوية ، سنة ثمان وخمسين . سقط في قدر مملوء ماءً حاراً ، كان يتعالج بالعقود عليها من كزاز شديد أصابه ، فسقط في القدر الحارَّة فمات ، فكان ذلك تصديقاً لقول رسول الله ﷺ له ولأبي هريرة ، ولثالث معهما هو (أبو محذورة): " آخركم موتاً في النار " . الاستيعاب لابن عبد البر / رقم 1063/ .

فإذا الابتسامة تعلو وجه النبي الشريف الطاهر، وغمرته ألوان من الرضى وهو يرى إقدام المسلمين، كبيرهم وصغيرهم.. نساءهم ورجالهم.. فنظر إلى سمرة معجباً وقال له:

ـ فدونكه، فصارعه..

وكانت الغلبة لسمرة على رافع.. فأجازه للمعركة !.

ودنا النذير المهلك.. ودعا داعي الموت.. واستبشر المؤمنون بنصر الله.. والتحمت الصفوف.. هنالك حثالة الكفر والشرك.. وهنا جيش التوحيد والإيمان..

أولئك سلاحهم العصبية والثأر والأوثان.. هؤلاء عدتهم الصبر والدعوة والإسلام. وسالت الدماء وكثر الجرحى والقتلى، ولكن شهداء المسلمين في الجنة، وقتلى المشركين في النار!. وكان من بين الجرحى، الغلام الشجاع.. البطل الصغير،

رافع ابن خديج، فقد أصابه سهم في لَبَّتِهِ[1]، فجاء به عمُّه إلى النبي ﷺ وقال:

ـ إن ابن أخي أصابه سهم يا رسول الله :

فأجابه رسول الله ﷺ قائلاً :

ـ" يا رافع: إن شئت نزعتُ السهم والقُطْبة جميعاً، وإن شئت نزعت السهمَ وتركت القطبة، وشهدت لك يوم القيامة أنك شهيد.. " فنزع رسول الله ﷺ السهم وترك القطبة، فعاش بها طيلة حياته. إلى أن مات شهيداً متأثراً بالقطبة التي بقيت في جسده، وذلك في زمن الخليفة الأموي، عبد الملك بن مروان[2].

---

(1) لبته: اللَّبَّة ، موضع القلادة من الصدر .

(2) عبد الملك بن مروان (26-86 هـ / 646- 705 م) :الخليفة الأموي الخامس 65 هـ 685م، ولد بالمدينة وتوفي بدمشق . وحَّد الدولة بعد أن قضى على مصعب بن الزبير وأخيه عبد الله ، منافس البيت الأموي على الخلافة 692م. حارب الخوارج وأوقع بهم . أخضع ثورة عبد الرحمن بن الأشعث في " دير الجماجم " أنشأ البريد وعرَّب دواوين الدولة ، وصكَّ النقود الذهبية .

5. أطفال من آل بيت

أطفال من آل بيت[1]

كانا قمرين[2] يمشيان بين الناس. قد اتشحا بثوب آل البيت، فزادهما فضلاً فوق فضل.

فجدهما رسول الله ﷺ، وأبوهما علي بن أبي طالب، وأمهما فاطمة الزهراء، فلذة كبد النبي ﷺ، وحبة قلبه. حتى ليشعر من يراهما بأن المجد في عليائه، والسؤدد في سمائه، والحَسَبَ في

---

(1) المختار من طرائف الأمثال والأخبار: نبيه الداموري . الشركة العالمية للكتاب ـ دار الكتاب اللبناني 1987م، ص 32.

(2) الحسن والحسين: الحسن (3ـ50 هـ / 624 ـ670 م): بِكر أبناء علي وفاطمة . بويع له بالخلافة بعد مقتل أبيه فآثر عدم القتال وترك الخلافة . مات في المدينة . الحسين (ت61 هـ / 680): الابن الثاني لعلي وفاطمة . أقام في المدينة حتى خلافة يزيد . رفض مبايعة يزيد ودعا إلى تبديل الحكم الاستبدادي الفردي . استدعاه الكوفيون لمبايعته بالخلافة . اصطدم بالجيش الأموي في كربلاء ، وكان في قلة من أصحابه ، لا يبلغون المائة . أبى الاستسلام فقتل في 10 محرم / 61 هـ الموافق 10 / تشرين الأول 680 م . ودفن في كربلاء بالعراق .

عراقته والنَّسَبَ في روائه.. ليغبطون هذين الكوكبين.. سيدا شباب أهل الجنة !.

مشى الاثنان يقصدان مسجد رسول الله ﷺ، فقد أذَّن داعي الله الصلاة، ولا ينبغي أن تفوتهم صلاه في مسجد رسول الله ﷺ، فدخلا المسجد وهما يتدافعان ببراءة حلوة، وإيمان نقي لا تشوبه شائبة.. ولَّما همَّا بالوضوء.. نظرا إلى أعرابي مُسنٍّ يتوضأ فلا يحسن الوضوء، ثم يقوم لصلاته فلا يجيدها.

وهمَّ الاثنان بالقيام بواجب الدعوة المناطة في عنقهما وعنق كل مسلم وداعية. ولم يكن عليهما من العسير إرشاده وتوجيهه.. ولكن بالصبر والأناة والحكمة، ودون أن يمسَّ هذا الإرشاد شعور الشيخ وكبرياءه، لا سيما أن المرشدين صغيران.. لم يبلغا الحُلْمَ بعد !!.

واتفقا على رأي كان موفقاً.. جد موفق.. وبأسلوب كان غاية في الحنكة والذكاء.

فاقتربا من الرجل، وقال كل منهما لأخيه: إنه أكمل وضوءً وأقوم صلاةً، ونظرا إلى الرجل نظرة هادئة ثم احتكما إليه طالبين منه النظر في أمرهما، فقام كل منهما فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم اتجه إلى كعبة الله فصلى وخشع في صلاته واطمأن حتى فرغ من صلاته.

وفي كل ذلك كان الرجل الشيخ يرقبهما بعين سمحة، وابتسامة راضية، فلما رأى وضوء هما ونظر نفسه، وأدرك ما كان لا يحسنه ولا يجيده.. فنظر إليهما وقد فطن إلى ما يرميان إليه فقال: أحسنتما في وضوئكما.. وفي صلاتكما.. كما أحسنتما في إرشادكما.. أما والله إنكما من آل بيت !!.

6. الغلام اليتيم

الغلام اليتيم[1]

نظر الصحابي في المسجد العامر بالمصلين، فرأى شموعاً تتقد ناراً ونوراً.. كانوا جميعاً يصلون وهم يتطلعون إلى صاحب الرسالة العصماء، قدوتهم في كل شؤون حياتهم. كان بالنسبة لهذا الصحابي كل شيء مألوفاً، إلى إن رأى في زاوية من زوايا المسجد غلاماً صغيراً.. لم تكن صلاته قصداً. بل لم تكن صلاة.. لم تكن كذلك أبداً إنها أشبه بمعراج نحو السماء.. حيث يمكن أن يتطلع المسلم في صلاته ودعائه !.

---

(1) من كنوز الإسلام: د. محمد فائز المط . مؤسسة الرسالة ـ مكتبة الأقصى ط1 ـ 1984 م، ص 87ـ88 .

لو نظرت إلى ذلك الغلام وهو يصلي، لأدركت معنى اللذة التي يعيشها المسلم في صلاته وهو يحيا أحلى لحظات الخشوع والتبتل والإيمان.

ظل الصحابي واقفاً يرقب هذا الغلام حتى فرغ من صلاته، فأقبل عليه وسأله :

ـ ابن مَنْ أنت ؟.

ـ إني يتيم فقدت أبي وأمي.

ـ أترضى أن تكون لي ولداً ؟.

ـ هل تطعمني إذا جعت ؟.

ـ نعم !.

ـ وهل تسقيني إذا عطشت ؟.

ـ نعم !.

ـ هل تكسوني إذا عريت ؟!

ـ نعم !.

ـ وهل تحييني إذا مت ؟!.

ـ (الصحابي يقف مدهشاً): هذا ليس إليه سبيل !!!.

ـ (فأشاح الصبي بوجهه وقال): إذن اتركني للذي خلقني ثم يرزقني ثم يميتني ثم يحييني !.

ـ لعمري من توكَّل على الله كفاه !.

ثم تركه ومضى يسائل نفسه.. وأنى لدين غير دينك يا رسول الله أن ينجب مثل هؤلاء الأطفال.. الأبطال ؟!.

7. فأين اللّه

فأين اللّه[1]

كانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية الحارقة، فيغدو كل شيء تلامسه حاراً كجمر الغضى.. بينما كانت الفلاة المحيطة بمكة تبدو متجردة عن كل إهاب، فكأنما هي عروس قد خلعت عنها إزارها، فبدت عارية لا تستتر من الطبيعة بحجاب.

في هذه الصحراء المترامية الآفاق.. الملتهبة الرمال.. الخالية من كل شيء إلا السكون المطبق عليها من كل مكان. كانت تبدو مجموعة من الشياه ترعى باحثة عن الكلأ والماء. وبالقرب منها كان يقف غلام حدث السن، ترك أغنامه ترعى ووقف ليصلي ما شاء من الصلوات.

---

(1) موسوعة فقه عبد الله بن عمر (عصره ـ حياته) :د. محمد رواس قلعه جي (سلسلة موسوعات فقه السلف) . بيروت ـ دار النفائس ـ ط1/ 1986 ـ ص 19.

وفيما هو على حاله تلك، إذا بعبد الله بن عمر[1] ـ فقيه مكة وعالمها ـ يعبر الطريق قاصداً شعاب مكة، فيلحقه الجوع والعطش، ويكاد لشدة عطشه يتلمس ريقه في فمه فلا يجده.. وينظر من بعيد تجاه الغلام، فيراه واقفاً يصلي، فيدهش ابن عمر من هذا الراعي الذي وقف والشمس تدركه من كل جانب، ليصلي غير عابيء بحرارة الشمس ولهيبها.. فاقترب منه رويداً رويداً، وانتظره حتى فرغ من صلاته، ثم قال :

ـ السلام عليكم !.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله !.

ـ يا غلام: إني عابر سبيل قد لحقني العطش، فهلَّا سقيتني من لبن الشياه.

---

(1) ـ عبد الله بن عمر بن الخطاب (ت 73 هـ / 692م): صحابي تقي ، راوية حديث النبي ﷺ، هاجر إلى المدينة قبل أبيه . قاتل في حروب الردة ، واشترك في غزو أفريقيا . توفي بمكة .

ـ ليس ذلك لي يا سيدي، فأنا مؤتمن على هذه الأغنام، أرعاها وأُعْنَى بشأنها.

ـ ولكن ألا تشرب أنت في هذا الحرَّ.

ـ لا يا أخا العرب !!.

ـ ولم لا والأغنام بين يديك، ولبنها يُذْهِب العطش ويَبُلُّ الصدى[1] !.

ـ إني صائم !!

ـ في هذا اليوم تصوم، وفي مثل هذا الحر !. أما والله إني لأعلم ما في هذا اليوم من فضيلة تُذْكَر، فما هو برمضان، ولا من الأيام

---

(1) الصدى: شدة العطش .

البيض[1].. ولا هو بتاسوعاء ولا بعاشوراء، ولا هو كذلك من الاثنين أو الخميس !.

ـ أصوم في حر هذا اليوم، اتقاءَ حر ذلك اليوم[2] !!

ويقف ابن عمر وقد شقت الدموع طريقها إلى خديه الأسيلين[3]، وتَذَكَّرَ الأيام التي كان يحياها مع المعلم الأول.. يوم كان يصوم الأيام لا يجد ما يقيم أوده الشريف، ويصوم الأيام والأيام، حتى كان الناس ـ لكثرة صيامه ـ يظنونه ليصوم حتى ما يفطر !.

أدرك عبد الله بن عمر الخطاب أن هذا الغلام جندي من أتباع محمد ﷺ، وتلميذ نجيب في مدرة الإسلام. وبمثل هؤلاء

---

(1) الأيام البيض: هي أيام (13 ـ 14 ـ 15) من كل شهر قمري .

(2) يوم القيامة .

(3) الخد الأسيل: هو الطويل الناعم .

الأطفال يمكن للإسلام أن يمتدَّ حتى ليبلغ ما بلغ الليل والنهار.

فأراد أن يختبر النِّضَار[1] في أصالته، والإيمان في عمقه وصلابته وثباته، وبالبلاء والإغراء يمكن لمعادن الناس أن تتكشف على حقيقتها وأصولها، وكم من أناس سقطوا على محك الدرهم والدينار.. فبدت حقيقة إيمانهم الزائف، وإسلامهم الواهي كبيت العنكبوت.

هنا بدت أريحية ابن عمر ﷺ، فالتفت إلى الغلام وقال:

ـ يا غلام: هلا ذبحت لي شاة من الأغنام، وسأعطيك ثمنها أضعاف ما تهوى ؟!.

---

(1) النضار: الذهب

ـ يا سيدي ألم أقل لك إن الأغنام لسيدي، وأنا مؤتمن عليها وراعيها.. فهلَّا تركتني وشأني، فإني بشوق لأن أعرج إلى ربي، وأنا في هذه الفلاة المنفردة. بالله عليك كُفَّ عني، فلو كان لي مثل هذا القطيع وضعفه، ما تأخرت عنك بكل الشياه.. ولكنها الأمانة يا ابن عمر !!.

ـ اسمع يا غلام: إني والله قد أحببتك، فهلَّا ذبحت الشاة وأخذت ثمنها وتدبَّرْتَ به شأنك وأعتقت نفسك، وإذا سألك سيدك فقل له: أكلها الذئب.. وليس إلى ردَّ ها من سبيل !..

وهنا نظر الغلام إلى ابن عمر، نظرة اشرأبت لها السماء، وهبَّت معها ريح الإيمان العاتية، فإذا بها تموج كالشطآن في ليل بحر عاصف، ثم أمسك بكتفي ابن عمر وصرخ صوتاً ردَّدت صداه الصحراء الخالية.. وظل رجع ندائه يعبر السماء في عليِّها، حتى غُيِّب عن سمع الحياة.

تلك الصرخة كانت مدوية.. ولا كما توقعها ابن عمر.. صاخبة.. حفرت مجراها في الأعماق، ولم ينته رجعها، لأن شعاع الشمس والرمال الذهبية، وكل موجودات المكان، كانت ترددها بصوت يسمعه كل مخلوق إلا الإنسان.

كلمة ودعاها الغلام بسره الدفين.. فكانت من القلب إلى القلوب !!.

كان رد الغلام على عرض ابن عمر من كلمتين اثنتين :

ـ فأين الله.. فأين الله.. فأين الله !!.

وظل يرددها حتى سقط على الأرض باكياً، والدموع تسقي الرمال العطشى..

فحنى عليه ابن عمر.. وقال :

ـ يا غلام: أما والله ما أردتُ إلا البلاء والاختبار. وإني ذاهب الساعة إلى سيدك فمعتقك منه !.

ثم تركه ابن عمر وذهب يسأل عن سيد الغلام، فاشتراه منه ثم أعتقه وأراد أن يكرمه ويحسن حاله، فاشترى الأغنام التي كان يرعاها ووهبها له.. ثم قال له :

ـ" يا غلام لقد أعتقتك هذه الكلمة في الدنيا.. وأرجو أن تعتقك في الآخرة [1]".

---

(1) جمل من التاريخ.

8. الفتاة المؤمنة

الفتاة المؤمنة[1]

مشى وحيداً في هذا الليل البهيم.. كان كل شيء مظلماً من حوله، لكن شعاعاً واحداً ظل ينير أمامه دروبه، فيرى أشد الليالي حلكة نهاراً مشمساً وربيعاً مونقاً، هذا الشعاع كان نور الإيمان والأمل الذي يضيء من داخله فتغدو له الدنيا شيئاً زهيداً.. تافهاً، شيئاً لا يأبه له إن فاته، ولا يفرح به إن أدركه.. ما دامت هذه الدنيا ممر وإلى الله المستقر.

كان عمر بن الخطاب[2] قد تعوَّد أن يمشي ليلاً يتفقد أحوال

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز (على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه): لأبي محمد عبد الله ابن عبد الحكم . تحقيق: أحمد عبيد ـ دار الفكر بدمشق ط 3 / 1964م ، ص22 ـ 23 .
ـ جوهرة الزمان: لشمس الدين أبو المظفر .

(2) عمر بن الخطاب (ت 23 هـ 633 م): ثاني الخلفاء الراشدين (13 ـ 23 هـ / 634 ـ 644 م). وأول من لقِّب بأمير المؤمنين . ولد في مكة . خلف أبا بكر الصديق في خلافة المسلمين ، عُرف

الرعية، فيهجر الفراش الدافئ الوثير[1]، والغزال المقنع الغرير[2]، ليقوم على حاجة الأمة وما كان لينام دون أن يقوم بجولته تلك، ويستبين بأن كل فرد في الأمة أصابه العدل.. أنصفه الإسلام. حتى أولئك الذين لم يدينوا بالإسلام من أهل الكتاب.

عمر الفاروق.. صفحة مشرقة في سجل الخالدين !!.

بشدة ولائه للنبي. ويُضرب بعدله المثل . في أيامه فتحت الجيوش الإسلامية بقيادة عمرو ابن العاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ويزيد ابن أبي سفيان ، وخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص، الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية . أنشأ (الديوان) لدفع رواتب الجيش و (الأمصار) لتحديد قاعدات الجند والمدن . اغتاله مولى فارسي اسمه (أبو لؤلؤة) ومات شهيداً

(1) الوثير: الناعم .

(2) الغرير: الحسن الخلق ، والمقصود به ، هجر النساء في المضاجع في سبيل الله .

مشى خليفة رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين، يحمل على كاهله[1] عبئاً ثقيلاً.. ينوء به أشد الرجال جلداً وعزيمة. مشى يجر رجليه متعباً مما لاقاه في هذا اليوم.. وكل يوم !!.

مشى عمر حصن الإسلام الحصين، يبحث عن جائع ليطعمه، عن فقير ليعطيه، عن مسكين ليؤنسه، عن عار ليكسوه، عن مظلوم لينصره، عن يتيم ليعطف عليه.. ورغم بحثه الدائب، فإنه هذه المرة لم يعثر على طلبته، فقد أصابهم عدله جميعاً، وما عاد في الأمة فقيراً، أو عارياً، أو مسكيناً، أو مظلوماً !!.

مشى عمر طويلاً.. حتى بدت خيوط الفجر، وكاد يسقط من التعب والإعياء، فارتكن إلى جدار ليستريح، ثم ليعود إلى داره.. ولمَّا يكد يجلس حتى سمع أمراً عجيباً من داخل البيت الذي ارتكن إلى جداره. كان صوت امرأة وابنتها.. فأحسَّ عمر بأن لأهل هذا البيت شأناً أسهرهم.. فتتبع حديثهم الذي أبكاه:

---

(1) الكاهل: أعلى الظهر مما يلي العنق . كناية عن رعايته للمسلمين .

الأم: ألا تَمْذُقِيْنَ[1] لَبَنَكِ فقد أصبحت ؟.

البنت: كيف أمذق وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق ؟!. أما سمعت منادي أمير المؤمنين ينادي أن لا يُشَابَ[2] اللبن بالماء !.

الأم: قد مذق الناس فامذقي، فما يدري أمير المؤمنين ؟.. وأين أنت الساعة من مناديه ؟!.

البنت: إن كان عمر لا يعلم، فإله عمر يعلم.. ماكنت لأفعله وقد نهى عنه.

إذا لم يرني مناديه ـ يا أماه ـ يراني ربُّ مناديه !.

فو الله ماكنت لأطيعه في الملا[3]، وأعصيه في الخلا[4] !!.

كانت الكلمات تحفر مجراها في قلب عمر.. فإذا بها تثمر قطرات من الدموع، تبلل وجنتيه الزكيتين، ولحيته الكثيفة الغبراء.

---

(1) تمذقين: مذق الماء باللبن ، مزجه به .

(2) يشاب: يخلطه بشيء سواه .

(3) الملا: الصحراء ، والمتسع من الأرض.

(4) الخلا: الانفراد .

تلك الفتاة ثمرة يانعة من ثمار الإسلام، وزهرة فوَّاحة في جنة الإيمان والإسلام.. ولا ينبغي لهذه الفتاة أن تكون عادية في الحياة.. فمثلها ينبغي أن تنجب الأبطال والقادة والحكماء.

وعاد عمر إلى بيته، فتوضَّأ وأيقظ أهله لصلاة الفجر، وانطلق إلى مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، ليؤم الناس في صلاتهم.. ولَّما فرغ من صلاته، التفت جانباً كأنما يبحث عن شيء ما، فيرى ولده عاصماً [1] فقال :"اذهب يا بنيَّ إلى بيت فلان، فإن عندهم بنتاً، فاخطبها وتزوجها، فما أحراها أن تأتي بفارس يسود العرب[2] ". وكان عاصم بن عمر بَارًّاً بأبيه.. تقياً ورعاً.. فانطلق إلى تلك الفتاة، وكانت جارية من بني هلال، فتزوجها وعاش معها حياة رغيدة هنيئة.. وأنجبت له فتاة تُكَنَّى

---

(1) عاصم بن عمر بن الخطاب: القرشي العدوي ، شاعر ، كان من أحسن الناس خلقاً ، وكان طويلاً جسيماً . ولد سنة 6 هـ الموافق 627م ، وهو جد عمر عبد العزيز لأمه ،مات بالربذة عام 70 هـ الموافق 690م.

(2) تلك نبوءة وكرامة لعمر بن الخطاب ، والمقصود بتلك النبوءة ، عمر بن عبد العزيز .

" أم عاصم[1] ".. ربَّاها تربية إسلامية صالحة، ثم زوجها من عبد العزيز بن مروان بن الحكم..

وكان أن صدقت نبوءة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، حيث ولدت " أم عاصم "، أعدل ملوك الدنيا بعد أصحاب رسول الله ﷺ، أنجبت " عمر بن عبد العزيز[2] ".. خامس الخلفاء الراشدين !!.

---

(1) في تهذيب الأسماء واللغات وللإمام النووي ، أن اسمها " ليلى " وفي مسامرات الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي ، أن اسمها قريبة وكذلك قال في " مناقل الدرر " . وفي تاريخ ابن عساكر ، قال الدار قطني هي " عتبة ".

(2) عمر بن عبد العزيز مروان بن الحكم الأموي القرشي: أبو حفص ، الخليفة العادل ، الصالح الزاهد . وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين ، تشبيهاً له بهم . ولد في المدينة عام 61 هـ الموافق عام 681 م ونشأ فيها، ولي الخلافة بعهد من سليمان بن عبد الملك عام 99 هـ ،فبويع له في مسجد دمشق . انصرف إلى الإصلاح الداخلي والمالي، أظهر تسامحاً مع العلويين والنصارى والموالي . ولم تطل مدة حكمه ، حيث قيل إنه دسَّ له السم فتوفى في دير سمعان ، عام 101 هـ ، الموافق 720م، ومدة خلافته سنتان ونصف وأخباره في العدل كثيرة ومستفيضة .

9 ـ غلام مؤمن

غلام مؤمن[1]

خرج ليلاً يبحث عن إنسان وسط الذئاب، فقد ملَّت نفسه معاشرة العصاة، وأين ؟.. في مكة أم القرى وخير بلاد الله. كان رجلاً من الصالحين الأتقياء.. نظر في مرآة نفسه فرآها تركن إلى الدنيا وتستهويه مفاتنها، فمشى في شعاب مكة قاصداً كعبة الله، عرش الدنيا الأزلي.

كان الظلام دامساً، والليل ملقٍ سدوله على كل الأرجاء، لا يبدد قتامته تلك، سوى إضمامات ليلكية من شعاع القمر الفضي المنساب كشعر غجرية مسافرة !.

---

(1) سمير المؤمنين (من روائع الدين والأدب): للمؤلف . دار المحبة ط 1 ـ 1991 م. ص 212 ـ 213 .

مشى وفي قلبه هموم، وفي روحه شجون، وقد تألَّبت عليه المواجع، وهزَّته نفحة الشوق والأنس. ومشى شارد اللبِّ.. هادئ النظرات، يبحث عن شيء لا يكاد يعرفه.. شيء لم تَرْقَ إليه مداركه ؟!.

وفي غمرة شروده هذا، رأى من بعيد ظل إنسان.. نعم ! ظل إنسان هذه المرة !!. وتقترب الخطوات شيئاً فشيئاً.. خطوة فخطوة.. ويراه عن قرب. لم يكن إنساناً وحسب، بل غلاماً صغيراً.. نحيل القوام، مصفرَّ الوجه.. ترى عينيه تدوران حائرتين، تبحثان عن شيء لا تصلان إليه !.

فاقترب الرجل الصالح من هذا الغلام وقال له :

ـ أما معك مؤنس ؟..

ـ بلى !..

ـ أين هو ؟.

ـ هو أمامي وخلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي !.

ـ أما معك زاد ؟!

ـ بلى !.

ـ أين هو؟.

ـ الإخلاص، والتوحيد، والإيمان، والتوكل !!.

ـ هل لك في مرافقتي ؟.

ـ الرفيق يشغل عن الله، ولا أحب أن أرافق من يشغلني عنه طرفة عين !.

ـ أما تستوحش في هذه البرية ؟.

ـ إن الأنس بالله قطع عني كل وحشة، فلو كنت بين السباع ما خفتها !.

ـ ألك حاجة ؟.

ـ نعم: إذا رأيتني فلا تكلمني !!.

ـ ادعُ لي !.

ـ حجب الله طرفك عن كل معصية، وألهم قلبك الفكر فيما يرضيه !.

ـ حبيبي: أين ألقاك ؟.

ـ أما في الدنيا، فلا تحدث نفسك بلقائي، وأما في الآخرة، فإنها مجمع المتقين، فإن طلبتني، فاطلبني في زمرة الناظرين إلى الله عزَّ وجلَّ !.

ـ وكيف عملت ؟.

ـ بغض الطرف له عن كل محرَّم، واحتسابي فيه كل منكر، قد سألته أن يجعل جنتي النظر إليه !!.

ثم صاح الغلام صوتاً، ومضى مسرعاً حتى توارى عن الأنظار في لمحة البصر. فنظر الرجل حوله، وبحث عنه فلم يجد سوى ظل إنسان.. ترك كلمات في الحب.. كُتب لها أن تظل رموزاً في شعر العاشقين !!.

10 ـ نداء الفطرة

نداء الفطرة[1]

وُلِدَ لأبوين نصرانيين، فوجد نفسه نصراني الولاء.. مسلم الفطرة.. لم تكن عقيدة المسيح عيسى بن مريم لتجد هوى في نفسه الظامئة نحو الحقيقة الكبرى الكامنة في دين آخر غير هذا الذي وجد نفسه بين أحضانه !.

ولَّما بلغ سن التعلم، أرسله والده إلى المؤدب، كي يعلمه أمور دينه النصراني، وكان أول ما لقنه المؤدب " ثالث ثلاثة "، الركن الأول في تلك العقدة :

ـ قل ثالث ثلاثة !.

ـ بل هو واحد !.

---

(1) الرسالة القشيرية في علم التصوف: لأبي القاسم القشيري النيسابوري . تحقيق: معروف زريق ـ علي بلطه جي .دار الخير ـ ط1 ـ 1988م . الفصل الرابع (أعلام التصوف ص 427).

قل ثالث ثلاثة وإلا أوجعتك ضرباً !.

ـ بل هو واحد !.

ولَّما رأى المؤدب إصراره على قوله، عرَّج عليه فأوسعه ضرباً مبرحاً، فنظر إليه الصبي نظرة فيها الحَنَق والرأفة.. الغضب والإشفاق على هؤلاء القوم.

ثم تركه وهرب مسرعاً إلى مكان لا يراه فيه مؤدبه ولا والده ،لاذ بالفرار إلى مكان آخر من هذا العالم القاتم في عقيدته.. فرَّ ليلوذ بدين آخر هو دين الفطرة الإنسانية، الذي يولد عليه كل مولود. وهل غير شريعة الإسلام توافق نداء الفطرة في ساعة العسرة.. ذلك النداء العلوي في ضمير كل إنسان عاقل متبصر سوي :

فهذا دين رفيع، لا يُعْرِضُ عنه إلا مطموس[1]، ولا يعيبه إلا منكوس[2]، ولا يحاربه إلا موكوس[3]، فإنه لا يدع شريعة الله إلى شريعة الناس، إلا من أخلد إلى الأرض واتبع هواه[4].

وعلم أبواه بهروبه وهو لا يزال طفلاً صغيراً بعدُ، لا يقوى على مشاق الحياة. وأدركا السبب في فراره هذا، فأقسما إن عاد إليهم ليوافقانه على أي دين رجع عليه. فقد كان ولدهم أعزَّ عليهم من مالهم وحياتهم ودينهم !!.

ولم تمضِ فترة، حتى التقى الصبي بعالم مسلم يسمى " علي ابن موسى الرضا "، فعرض عليه الإسلام، فوجده كما في نفسه،

---

(1) المطموس: ذاهب البصر .

(2) المنكوس: الذي يعاوده المرض .

(3) الموكوس: الخاسر قليل الحظ .

(4) سيد قطب (في ظلال القرآن).

وكما تطمح إليه روحه التي آمنت بفطرتها التي جبلت عليها بيد الخالق سبحانه !.

فأسلم ثم عاد بيته ودقَّ الباب :

ـ مَنْ الباب ؟.

ـ أنا ولدكم !.

ـ على أي دين جئت ؟.

ـ على الدين الحنيفي !!.

فخرج إليه والداه وعانقاه وقبلاه، ثم أسلما معه.

وشاء الله أن تدخل الأسرة كلها في دين الإسلام، وكان لهذا الصبي بركة واسعة، وحسبه كرامة أن والديه قد آمنا بالله بسبب من ثباته على الحق و الإيمان !.

هذا الصبي كان له شأن في تاريخ الإسلام، فمن ذا الذي يقرأ عن أولياء الإسلام وأئمتهم، ولا يقف على معروف[1] الكرخي[2].

---

(1) هو أبو محفوظ ـ معروف بن فيروز الكرخي ـ (توفي 200 هـ / 815 م) :من كبار المشايخ مجاب الدعوة ، يستشفى بقبره ، يقول البغداديون :(قبره معروف ترياق مجرب) وهو من موالي على بن موسى الرضا . وكان أستاذ سري السقطي.

(2) الكرخي: نسبه إلى " كرخ" والكرخ حي من أحياء بغداد في غربي المدينة ، اشتهرت بالوقائع الدامية أيام بني بويه.

11. عندما يقرأ القرآن

عندما يقرأ القرآن[1]

لمَّا بلغ الخامسة من عمره، أراد أبوه أن يرسله إلى المؤدب كي يحفظ القرآن والفقه والسيرة والآداب والعلوم الأخرى. كان طفلاً لَقِنَاً [2] ذكياً، آتاه الله الفطنة والأريحية، وكان أول ما ابتدأ به حفظ القرآن الكريم، وأول سورة منه كانت ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ [الإنسان: ١]

فحفظها كاملة، ورأى فيها شيئاً لم تَرْقَ إليه مداركه، ولكنه أحسَّ به يمسُّ شغاف قلبه ويحرِّك فيه أحاسيسَ ومشاعرَ تفيض بنور الأمل والإيمان.

---

(1) أنباء نجباء الأبناء: ص 160 ـ 161 .

(2) لقناً: ذكياً عاقلاً .

وفي هذا اليوم عاد إلى البيت يمشي محاذياً للجدران، ثم يرفع يده ويشير بها، وكأنه مستغرق في حلم طويل.. ولمَّا وصل باب بيته وقف مفكراً، فكأنما هو يبحث عن شيء لا يعرفه. وصار كأنما يكلم نفسه بكلمات لا يكاد يَسْمَعُهَا مُجالسه، فأبصرت به أمه ونادته.. لكنه لم يجبها، فقد كان مستغرقاً في حلم بعيد.. هناك فيما وراء الشمس وخلف الأفق.. فذُعرت الأم مما رأت بولدها، فضمته إليها ودعت بالويل، فالتفت إلى أمه وكأن شيئاً لم يكن.. ثم قال :

ـ مالك يا أماه ؟.

ـ أبك بأس يا ولدي ؟!.

ـ لا.. لا..

ـ أين ذهنك ؟.

ـ مع عباد الله !.

ـ أين هم ؟!.

- في الجنة !.

- ما يصنعون ؟.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ١٣ – ٢٢]

وهكذا قرأ السورة وهو شاخص إلى السماء يتأمل في شيء بعيد لا تراه عيناه، ولكن يراه قلبه المبصر بنور الله.. وما زال يقرأ

حتى وصل إلى قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ٢٢ ﴾ فاستوقفه هذه الآية وكأنه أحس بشيء وراءها.. فقال :

ـ يا أماه !.. ما كان سعيهم ؟..

ـ (وقفت الأم صامته لا تحير جواباً) !.

ـ أماه قومي عني حتى أتنزه عندهم ساعة !.

ورأت الأم أن الأمر جد لا هزل فيه، فخافت على صغيرها، فأرسلت إلى أبيه تعلمه شأن ولدهما، فجاء أبوه مسرعاً فرآه على حالته تلك فقال :

ـ يا بني !. كان سعيهم أن قالوا " لا إله إلا الله محمد رسول الله ".

فكان الصغير يرددها في أكثر أوقاته، حتى غدا من أعلام الأمة وروادها في علم الظاهر والباطن !! وليس يخفى على أهل العلم والتصرف اسم داود بن نصر الطائي[1].

رحمه الله و رضي الله عنه.

(1) داود بن نصر الطائي: أبو سليمان ، من أئمة المتصوفين ، كان في أيام المهدي العباسي ، وأصله من خراسان ، ومولده بالكوفة ، رحل إلى بغداد ، وأخذ عن أبي حنيفة وغيره ، وعاد إلى الكوفة فاعتزل الناس ، ولزم العبادة إلى أن مات فيها عام 165 هـ الموافق 781 م .

قال أحد معاصريه: لو كان داود في الأمم الماضية ، لقَصَّ الله تعالى شيئاً من خبره . وله أخبار مع أمراء عصره وعلمائه .

12. الغلام الأمين

الغلام الأمين[1]

كان رئيس " مرو "[2] وقاضيها، رجل معروف بالفضل والنعمة والكرم والسيادة، وله نعمة كبيرة، وحال موفورة، وهو إلى ذلك كله ملتزم بأمور دينه، مطبق لأحكام الشريعة، محب للأخلاق والآداب الإسلامية.

هذا السيد الفاضل واسمه " نوح بن مريم " لم يرزقه الله سوى بنت واحدة، ذات حسن وجمال وبهاء وكمال، أنعم الله عليها بكل ما تطمح إليه الفتاة، وهي بعد في أوج فتونها ورونق

---

(1) التبر المسبوك في نصيحة الملوك: لأبي حامد الغزالي . مكتبة الكليات الأزهرية ط1ـ 1986م (الباب السابع)، ص 126 .

(2) مرو: مدينة في " الاتحاد السوفياتي " (تركمانيستان) هي اليوم " ماري " فتحها العرب سنة 651 ومنها خرج أبو مسلم الخراساني . ضرب المغول سدَّ المرغاب ، مصدر ثروتها الزراعية سنة 1221م .

شبابها.. فأبوها سيد "مرو" وقاضيها، رجل ميسور الحال، وافر النعمة وهي ابنته الوحيدة.. ميَّاسة القدِّ رشيقته، بهية الطلعة، زكية الأنفاس.. ترى في وجهها كل ما تطمح إليها نفسك من الجمال السماوي، فكأنما هي حورية السماء، ألقى بها الله إلى أرضه، لينعم بها كل مؤمن تقي.. لو نظرت إليها نظرة واحدة.. لما خامرك الشك بأن الجمال قد قفز ليستقر في سواد عينيها وحمرة خديها !.

رأى أهل " مرو " هذه الفتاة، وسمعوا عن جمالها الباهر، وما اتسمت به من أخلاق وآداب. فأتوا من كل حدب وصوب، يخطبونها من أبيها، وكان فيهم الأكابر والرؤساء، وسادة القوم وذؤابتهم، وغنيُّهم من ذوي النعمة والثروة، وعالمهم

ومفكرهم.. ولكن الأب يرفض كل أولئك، وفي كل مرة كانوا يعودون بخُفَّيْ حُنَيْن[1].

وتحيَّر أبوها في أمرها، ولم يدر لأيهم يزوِّجها، إنها لمعضلة تبدو شائكة صعبة ومعقدة !!.. فإن في تزويجها لفلان إغضاباً لآخر.. وإن زَوَّجَها لآخر فإن فيه إسخاطاً لغيره.

كان أمراً عسيراً.. جد عسير. وصار الرجل يضرب يداً بأخرى ويسترجع ويحوقل[2].. فيقع أسير الحيرة، فلا يجد مناصاً مما هو فيه إلا أن يدعو الله بأن يختار الخيرة مما أصابه ودهاه !.

كان لهذا السيد بستان كبير شاسع ممتد نحو الأفق، تحوطه أنهار وسواقٍ، فكأنَّ مياهها تسري في جدول من لجين[3].

---

(1) كناية عن الخيبة .

(2) يسترجع ويحوقل: هما من النحت اللغوي ، فالأولى وتعني " إنا لله وإنا إليه راجعون " . والثانية وتعني " لا حول ولا قوة إلا بالله " .

(3) اللجين: الفضة .

قد أثمرت أشجاره عن أطايب الفاكهة والثمار، وتفتقت وروده عن ألون شتى من الجمال.. ففيها الزنبق والِسيْسَنبر[1] ، والياسمين والبيلسان، البنفسج واللوتس.

وفي كل ركن من أركان البستان كانت تتدلى الفاكهة، حتى لتكاد أغصانها تسقط أرضاً، إذ تنوء بحملها الثقيل اليانع الممرع. كل شيء في الكرم الرحيب كان يوحي بأنه قطعة من الجنة.. أنعم الله بها على هذا السيد الجليل.

وذات يوم دخل الرجل جنته الوارفة الظلال، علَّه أن يجد حلاً لما نزل به من الهم والغم، ثم ليستريح فيها ويستروح، فعسى أن يجد الله له مخرجاً مما هو فيه. وكان يشرف على شؤون البستان غلام هندي تقي اسمه "مبارك".. غلام يافع، طيب النفس، هادئ الطبع، رفيع الخُلُق، أسمر اللون، نحيل القوام.. زاهداً في

---

(1) أي : الريحان . تاج العروس ، مادة سسنبر.

دنياه.. أميناً على ما استؤمن عليه من متاع. قد رضي بما آتاه الله، فعمل في هذا البستان راضياً هنياً سعيداً ولم يمضِ على عمله في هذا البستان سوى شهر واحد.. رآه سيد "مرو" أثناء تجاوله في الكرم، ودار بينهما حوار كان فيصلاً في حياة الاثنين معاً :

ـ السيد: يا مبارك ! ناولني عنقود عنب !.

ـ مبارك: (ناوله عنقوداً) .

ـ السيد: (يتذوق العنقود فيجده حامضاً) فقال: أعطني غير هذا!.

ـ مبارك: (أتى له بعنقود آخر) !.

ـ السيد: (يتذوق العنقود الآخر فيجده حامضاً). فقال: مالك يا غلام لا تقطف لي دون سائر الأشجار غير الحامض ؟!.

ـ مبارك لأني لا أعلم أحامض هو أم حلو ؟.

ـ السيد: (وقد بدت عليه الدهشة والاستغراب) سبحان الله!!.. إن لك في هذا الكرم شهراً كاملاً، ما تعرف الحامض من الحلو ؟.

ـ مبارك وحقك أيها السَّيد ! أنَّى لي أن أعلم ولم أذقه من قبل !.

ـ السيد: لِمَ لا أكلت منه ؟.

ـ مبارك: لأنك أمرتني بحفظه، ولم تأمرني بأكله !! فما كنت لأخونك !.

ـ السيد: (يتعجب منه ويحار ثم يُرْدِف قائلاً): حفظ الله عليك أمانتك !.

وجلس القاضي يفكر في شأن هذا الغلام، إنه لأمر عجيب.. إن هذا الغلام أمين وتقي وورع.. وإني آليت على نفسي ألَّا أزوِّج ابنتي إلا لمن كانت هذه صفاته. وهذا الغلام أولى بأن يتزوجها دون سائر سادة "مرو" وأغنيائها. وأراد أن يختبر الغلام في عقله ورأيه.

ـ السيد: يا مبارك ! قد وقع لي رغبة منك، وينبغي أن تفعل ما آمرك به !.

ـ مبارك: أنا مطيع لله ثم لك.

ـ السيد: اعلم أن لي بنتاً جميلة، وقد خطبها كثير من الرؤساء والمتقدمين، ولا أعلم لمن أزوجها، فأشر عليَّ بما ترى ؟..

ـ مبارك: يا سيدي إن الكفار في زمن الجاهلية كانوا يريدون الأصل والنسب، والبيت والحسب، واليهود والنصارى يطلبون الحُسن والجمال.

وفي عهد الرسول الله ﷺ، كان الناس يطلبون الدين والتُّقَى. أما في زمننا هذا فالناس يطلبون المال.

فاختر من هذه الأربعة ما تريد، فإن الله سائلك يوم القيامة، هل أحسنت الاختيار أم أسأت وكنت داعي الفتنة.

ـ السيد: (يقفز من مكانه ويمسك بيديه فرحاً ويقول): قد اخترتُ الدين والتقى والأمانة.. أريد أن أزوجك ابنتي لأني قد وجدت فيك الصلاح والديانة والأمانة.. وجرَّبت منك العفة والصيانة !.

ـ مبارك: أيها السَّيد: أنا عبد رقيق هندي أسود، ابتعتني بمالك، كيف تزوجني بابنتك ؟. وكيف تختارني ابنتك وترضاني ؟.

ـ السيد : قم بنا إلى البيت لنسعى في هذا الأمر !.

وينطلق السيد والعبد، وقد اجتمعا في لقاء نحو المصاهرة.. لم يكن اختيار السيد للعبد على أساس الحسب والنسب، ولا السيادة والريادة ولا القومية والعصبية، ولا المال والجدة[1].. لم يكن كذلك أبداً !.

---

(1) الجدة: الغنى . قال أبو العتاهيه :

إن الشباب والفراغ والجدهْ مفسدة للمرء أي مفسدهْ

هذا الاختيار وهذا اللقاء، صنعه الإسلام.. الإسلام الذي جمع بين الإنسان في شتى ألوانه ومشاربه.. الإسلام الذي جعل يد السيد تصافح يد العبد، في خطوة أولى نحو إلغاء العبودية !.

ووصل الاثنان إلى القصر المنيف[1]، وكانت العروس تسكنه مع أبويها، لا يشاركها فيه أحد

فالتفت السيد إلى زوجته وقال :

ـ اعلمي يا أمة الله أن هذا الغلام الهندي دَيِّن تقيٌّ، وقد رغبت في صلاحه، وأريد أن أزوِّجه ابنتي، فما تقولين ؟.

ـ الأمر كله إليك.. ولكن أمضي إلى الصبيَّة فأخبرها، وأشاورها في الأمر، وأعيد عليك جوابها.

---

(1) المنيف: المرتفع العالي .

وانطلقت الأم إلى ابنتها، وأدَّت إليها رسالة أبيها، وكلَّمتها بلسان رطب عذب.. فيه وضوح العبارة وعفة النساء المحصنات، وكانت الفتاة محبة لاختيار أبيها، ورأت فيه السداد والصواب، وسعادتها في دنياها وآخرتها.

فالتفتت إلى أمها وقالت بلسان المؤدبة المهذَّبة :

ـ أماه مهما أمرتماني به فعلته، ولا أخرج من تحت حكمكما ولا أعاندكما بالمخالفة، بل أبركما ! ولكما الأمر في البدء والنهاية.

ورأت الأم في كلام ابنتها موافقة صريحة لا مِرَاء فيها. فانطلقت إلى الزوج وأخبرته بما كان من أمر ابنتهما، فَسُرَّ الأب بذلك وزوَّجها من المبارك. وكان عرساً ماجت البشائر فيه.. ورقصت عرائس الحب والجمال، وتضوَّعت أرجاء القصر بنفح الطيب، وازدانت بابتسامات علت الشفاه.

وفي جانب آخر من القصر، وفي مدينة "مرو" كان يقف سادتها وأغنياؤها، وهم دهشون من أمر الأب وابنته.

وأعطى السيد لابنته وزوجها أموالاً كثيرة عظيمة، ووهب لمبارك البستان الذي كان خادماً فيه.. عندها ذهب مبارك ليذوق العنب وليميز الحامض من الحلو !!.

ولم تمضِ فترة على زواج المبارك بابنة ذاك السيد، حتى ولدت له ولداً أسمياه " عبد الله "[1] وهو الذي حدَّثنا عنه التاريخ بأحرف من نور ومضاء.. بل بكلمات يشعُّ منها ألق الضياء السرمدي.

---

(1) عبد الله بن المبارك (118 ـ 181 هـ = 736 ـ 767 م): عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء ، التميمي المروزي أبو عبد الرحمن ، الحافظ شيخ الإسلام المجاهد التاجر ، صاحب التصانيف والرحلات . أفنى عمره في الأسفار ، حاجاً ومجاهداً وتاجراً جمع الحديث والفقه والعربية . كان إمام الناس في الشجاعة والسخاء في خراسان . توفى بهيت عام 181 هـ ـ 797 م .

" عبد الله بن المبارك " الرجل.. العالم.. الفقيه.. الزاهد.. المجاهد في سبيل الله !!.

وحسبك من عبد الله بن المبارك وهو مرابط في سبيل الله بأرض الشام ذات يوم، فأتاه نبأ " الفضيل بن عياض "[1]، إمام الحرمين، وهو يتعبد في الكعبة ملتزماً جوارها.. فأرسل إليه شعراً يقول فيه :

يا عابد الحرمين لو أبصـــــرتنا ... لوجدت أنك بالعبادة تلعبُ

من كان يخضـــب خدَّه بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضـــبُ

أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الكريهة [2] تتعبُ

---

(1) الفضيل بن عياض (105 – 187 هـ = 723 – 803 م): هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي ، أبو علي شيخ الحرم الملكي ، من أكابر العباد الصلحاء . كان ثقة في الحديث ، أخذ عنه خلق منهم الإمام الشافعي . ولد في " سمرقند " ونشأ بأبيورد ، ودخل الكوفة وهو كبير، وأصله منها ثم سكن في مكة وتوفي بها .

(2) يوم الكريهة: المعركة .

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك [1] والغبار الأطيب

لا يستوي غبار خيل الله في ... أنف امرىء ودخان نار تلهبُ

هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميِّت لا يكذبُ (2)

فلما بلغ الفضيل بن عياض هذا الشعر، بكى حتى اخضلَّت[3] لحيته وقال: صدق أخي ونصحني !!.

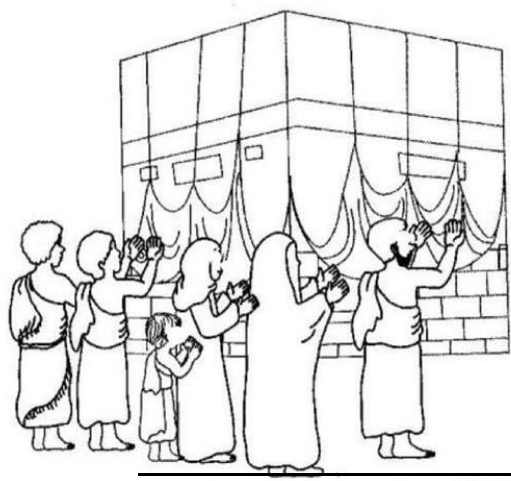

(1) رهج السنابك: الرهج ، ما أثير من الغبار . والسنابك: طرف مُقدَّم الحافر . مفردها سنبك.

(2) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

(3) اخضلت: ابتلت .

13. هكذا قيام الليل

هكذا قيام الليل[1]

جلس في حلقة العلم وكله أذن صاغية، يحفظ كل ما يسمع من المؤدب. ولا يعير انتباهاً لما سوى ذلك. وسمع المؤدبَ يتلو قوله تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ [المزمل: ١ – ٢]

فحفظها وعاد إلى البيت، والآية تثير في نفسه تساؤلات كثيرة. فالتفت إلى أبيه وقال :

ـ يا أبتِ : مَنْ الذي يقول الله تعالى له هذا ؟.

ـ يا بني: ذلك النبي محمد ﷺ !.

ـ يا أبت ! مالك لا تصنع كما صنع النبي محمد ﷺ ؟.

---

(1) أنباء نجباء الأبناء: ص 150 ـ 151 .

ـ يا بني: إن قيام الليل خُصِّص به النبي محمد ﷺ، وبافتراضه دون أمته.

وفي اليوم التالي ذهب إلى المؤدب، وحفظ تتمة الآية: **قَالَ تَعَالَىٰ:**

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾

[المزمل: ٢٠]. فلما وصل البيت خاطب أباه قائلاً :

ـ يا أبت: إني أسمع أن طائفة كانوا يقومون الليل، فمن هذه الطائفة ؟..

ـ يا بني: أولئك الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين !.

ـ يا أبت: فأي خير في ترك ما عمله النبي ﷺ وأصحابه ؟.

ـ صدقت يا بني !!.

وأدراك الأب أنه مقصر في ذلك، فكان درساً تلقاه من ولده الصغير، ورأى أن لطفله شأناً في الحياة، فأراد أن يكون القدوة، وصار يقوم الليل ولا يتوانى في صلاته.

وذات ليلة استيقظ الطفل المُعلِّم ونظر حوله، فرأى أباه قائماً مستغرقاً في صلاته ومناجاته، يبكي يدموع محرقة ويتضرع إلى رب السماء.. فلمَّا فرغ من صلاته أقبل عليه الولد وقال :

ـ يا أبت: علمني كيف أتطهر وأصلي معك !.

ـ يا بني: ارقد فإنك صغير بعدُ !.

ـ يا أبتِ: إذا كان يوم يصدرُ الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، أقول لربي: إني قلت لأبي كيف أتطهر لأصلي معك ؟.. فأبى وقال لي: ارقد فإنك صغير بعدُ !. أتحبُّ هذا !؟.

ـ لا والله يا بني.. ما أحب هذا !!.

وعلَّمه التطهر والصلاة، فكان يقوم مع أبيه كل ليلة كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ [المزمل: ٢٠] . وكان أن أنعم الله على هذا الغلام، فصار اسمه غرةً في جبين الوجود.. بل عَلَماً يرفرف في العلا.. ومَنْ مِنَ الناس لا يعرف أبا اليزيد[1] البسطامي [2] !!.

(1) أبو اليزيد البسطامي: طيفور أبو يزيد ، با يزيد (ت 261هـ / 875 م): صوفي شهير ، كان جده مجوسياً ، يُستدل مما جاء عنه أنه أول من قال بمذهب الفناء ووحدة الوجود . أتباعه الطيفورية أو البسطامية . توفى ببسطام .

(2) بسطام: بلدة في "خرسان" الإيرانية على منحدرات جبال "ألبرُز" كانت في القرون الوسطى محطة تجارية هامة . اشتهرت بالتفاح الذي كان يُحمل منها إلى العراق .

14 ـ غلام أبي قدامة

غلام أبي قدامة [1]

لم يكد أبو قدامة [2] يفرغ من صلاته الجامعة في المسجد، حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم شرع بتذكير الناس بفضل الجهاد في سبيل الله، وحضَّهم على القتال وبذل الأنفس والأموال، وأن يجودوا بأغلى ما لديهم من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض.. لتكون الشريعة منهاجاً للإنسان تحكم حياته وتقوده للهداية والإيمان.

تلك كانت بعضاً من كلمات أبي قدامة الشامي في خطبته الملتهبة الموَّارة، وهو مرابط على تخوم الروم قائداً للجيش الإسلامي الزاحف نحو الحصون المنيعة الصلبة.

---

(1) مرقاة الوصول لنوادر الأصول: لأبي عبد الله الترمذي . دار صادر ـ بيروت . ص 133 ـ 136.

(2) أبو قدامة: أحد قواد الفتح الإسلامي بأرض الشام .

ولَّما انتهى من خطبته نزل عن المنبر وذهب قاصداً بيته ليستعد للغد الحاسم، غد المعركة القريب، وبينما هو في طريقه سالكاً شِعْبَ بيته، إذا بصوت رقيق أغن فيه صوت الناي والريح ينادي: أبا قدامة.. أبا قدامة !!.

كان الصوت صوت امرأة، فلم يلتفت إليه أبو قدامة، وظن أنها مكيدة من الشيطان، والنساء حبائل الشيطان وعدته، فاستعاذ بالله ومضى متابعاً طريقه من جديد، لكن الصوت عاد ثانيةً، ولكن بلهجة قوية هذه المرة.. قوية تشوبها لهجة التضرع والبكاء.. أبا قدامة.. أبا قدامة..

ولما رأت المرأة إعراض أبي قدامة السافر عنها، وقفت معاتبةً بلهجة هادئة: " هكذا يفعل أهل الصلاح بأهل الإرادة "[1]. وقعت هده الكلمات في سمع القائد المسلم، فأثارت في نفسه

---

(1) جملة من التاريخ .

أشياء كثيرةً.. هذه المرأة لا كما ظنها.. كلماتها توحي بذلك.. ربما هي آتية لطلب العون أو لنصرة على مظلمة.. فتسمَّر القائد في مكانه، والتفت تجاه المرأة التي كانت تسير خلفه.. لكنها لم تخاطبه هذه المرة، بل ألقت إليه برقعة وحزمة مشدودة برباط متين.

وانصرفت مسرعة وهي تبكي !. فتناول أبو قدامة الرقعة والحزمة المشدودة.. إن الأمر كان غريباً جد غريب !. تلك الرقعة وهاتيك الحزمة ما شأنهما ؟!.

واستثاره الفضول، ففتح الورقة ونظر فيها، فقرأ هذه الكلمات الساحرة:

" دعوتَ الناس إلى الجهاد، وحرَّضتهم على الثواب، وأنا امرأة ولا قدرة لي على الجهاد. وقد قطعت أحسن ما فيَّ وهما

ضفيرتاي. وقد أتيت بهما لتجعلهما قيداً لفرسك، لعلَّ الله يرى ذلك فيغفر لي" [1].

وقعت تلك الكلمات في قلب أبي قدامة، فرأى فيها الصدق والإيمان والتضحية.. تلك المرأة في العقد الرابع من عمرها، تحمل بين جنبيها هذا الإيمان الراسخ والعقيدة الثابتة.. هذه المرأة المؤمنة لا تنجب سوى الأبطال !.

وفي اليوم التالي، وبعد صلاة الفجر استعدَّ المسلمون للمعركة، لاختراق حصون الروم المنيعة المحصَّنة، بينما كان أبو قدامة يمسك بالضفيرتين وقد أحاطتهما تلك المرأة بخرق عتيقة حتى لا يبدو شيء منهما لأبي قدامة وسواه من الرجال.

أمسك القائد المسلم بالضفيرتين الطويلتين، وقرنهما قيداً لفرسه، ومضى نحو ساح المعركة لا تفارقه دمعة وابتسامة..

---

(1) جملة من التاريخ .

دمعة على هذا الشَّعْرِ الجميل المنساب الذي كان يُتوِّج رأس المرأة المجاهدة. وابتسامة بأن جيشاً قيد فرس قائده، صاغه شعر امرأة، لهو جيش سَيُكْتَبُ له النصر.. رغم كل شيء !.

ووقف أبو قدامة القائد المسلم في مقدمة الجيش، يرتِّب صفوفه، وينسق مجامعه، ويشرف على المجاهدين بنفسه. إذا به يرى غلاماً بين المجاهدين.. كان الغلام صغيراً.. حسن الوجه وسيمه، تبدو عليه الحنكة والتجربة، بل والقوة والصبر على الشدائد، فاقترب منه وقال :

ـ يا بنيَّ: أنت راجل [1] ، ولا آمن من أن تجول الخيل فتطأك بسنابكها [2] .. فارجع إلى موضعك !.

ـ كيف أرجع: وأنا أرى أعداء الله على بعد خطوات مني ؟.

---

(1) الراجل: من يمشي على رجليه لا راكباً.

(2) السنابك: مقدم الحافر من الخيل . مفردها " سنبك ".

ـ يا غلام: أنت صغير بعد، وغير مكلف بالجهاد اليوم.. نحن ننتظرك في الغد القريب، عندما تصبح شاباً قادراً على الجهاد بعزيمة وبلاء.

ـ ولكن أيها القائد انتظرت هذا اليوم طويلاً.. فلا تحل بيني وبين الشهادة.. أستحلفك بالله !!.

ثم كيف أرجع وقد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦﴾ [الأنفال: ١٥ – ١٦] .

رأى أبو قدامة إصرار الغلام على الجهاد ضد الروم أعداء الله، فأحب أن يعينه في طلباته، فقدَّم اليه فرساً يقاتل عليها عند

التحام الصفوف. فقفز الغلام بسرعة مذهلة، وثبت على صهوة الجواد، ونظر إلى أبي قدامة مبتسماً وقال :

ـ يا أبا قدامة ! أقرضني ثلاثة أسهم ؟!.

ـ (يبتسم أبو قدامة) ما هذا وقت قرض ؟!.

ـ با لله عليك أقرضني.

ـ (يعيطه أبو قدامة سهماً).

ـ (الغلام يضعه في قوسه ويسدد تجاه قلعة الروم فيقتل رومياً).

ـ أنا شريكك في الثواب.

ـ نعم.. إن أعطيتني سهماً آخر !.

ـ بوركت يا ولدي، هذا سهم آخر.. وسدَّد على ذلك العِلْج[1] الواقف فوق باب الحصن !.

ـ (الغلام يسدد على الرومي فيقتله ويرديه متخبطاً بدمائه).

---

(1) العلج: الحمار .

ـ هو ذا رومي آخر يقتل.. أحسنت يا بني، ولكن لا تنسَ أني شريكك في الأجر والثواب !.

ـ نعم يا سيدي. ولكن هل من سهم آخر ؟.

ـ على الرحب والسعة.. هذا سهم مسموم، ارم به على أولئك الواقفين علو حوافِّ الحصن يتربصون بكل مجاهد يحاول اختراق منعتهم.. عليك بهم لا تألوا، فالله ناظر إليك وناصرك.

ـ (يمسك الغلام بالسهم ويضعه في قوسه، ولم يكد يعدِّل فيه ليسدد حتى آتاه سهم في جبهته بين عينيه، فخر صريعاً يتلوى من الألم).

ـ أبا قدامة.. أيها القائد.. السلام عليك سلام مودِّع.

ـ يا ولدي لا تنسَ، فإنك عاهدتني !.

ـ نعم ! أنا على العهد.. ولكن لي إليك حاجة فاقضها إليَّ.

ـ لبيك يا بني.. لبيك وسعديك !.

ـ إذا دخلت المدينة فائتِ والدتي وسلِّم عليها عني، وأعطها هذا الخرج.

ـ وأين تقيم والدتك يا بني ؟.

ـ إنها تقيم في مكان كذا وكذا في المدينة !.

قال الغلام هذا الكلمات وأسلم الروح لبارئها، حيث كانت جنان الفردوس بحواريَّها وملائكتها تتهيأ لاستقبال الشهيد العظيم.

فانكبَّ أبو قدامة على الغلام يضمه إلى صدره ويقبله، ثم أمر بأن تُحْفَر حفرة للغلام حتى يدفن فيها، ثم تركه ومضى إلى ساح الوغى[1] تحدوه الثقة بنصر الله، وما هي إلا أن غربت الشمس

---

(1) ساح الوغى: أرض المعركة .

حتى كتب الله الظفر للمسلمين وتمَّ فتح الحصن واختراق صف الروم.. وعاد أبو قدامة إلى قبر الغلام يتفقده، فرأى الغلام على وجه الأرض، وكأنها قذفته، فحفر حفرة أخرى ودفنه فيها.

وعند الصباح عاد أبو قدامة إلى القبر، فوجد جثة الغلام خارج القبر قد نبذه خارجاً، ولَّما رأى القائد وجنده هذا الأمر، قالوا: دعه يا أبا قدامة، فإنه غلام ، ولعله خرج من غير إذن والدته، فوقع في سخط الله !!.

فوقف القائد حائراً في أمره، يفكر في مخرج من الأمر النازل به حتى أذَّن مؤذن العشاء. فقام وصلَّى، ثم تضرع إلى الله ودعا وبكى بدموع سخية مدرارة وقال: يا رب ما أدري ما أصنع به؟!.

وما هي إلا لحظات حتى سمع أبو قدامة صوتاً لا يعرف من أين جهته: " يا أبا قدامة دع وليَّ الله واذهب " !!..

فتركه القائد وعاد إلى بيته.. فنزلت طيور السماء الجارحة فأكلته، وأتت سباع الأرض فابتلعت العظام وما تبقَّى من جسده الغض الطري.

ولَّما كان الصباح رأى أبو قدامة تلك الطيور وهاتيك السباع وهي تلتهم أشلاء جسده المتناثر الدامي..

فحمل الخرج الذي أوصاه به، وذهب يسأل عن بيت والدته، حتى وجده، فطرق الباب طرقاً خفيفاً.. فردَّت فتاة صغيرة من خلف الباب قائلة :

ـ من الطارق ؟.

ـ أبو قدامة.. أبو قدامة الشامي..

ـ (تفتح الباب وتنظر إلى يدي أبي قدامة فترى الخرج، فصرخت بصوت عالٍ): بشراكِ يا أماه !!.جاء أبو قدامة بخرج أخي وما أراه معه.. إنها الشهادة يا أماه.. هنيئاً لنا !.. في العام

الأول استشهد أبي، وفي الثاني استشهد أخي، وفي هذا تبعهم أخي الآخر !.

فخرجت الأم مسرعة لترى الخرج.. فلما رآها أبو قدامة.. كاد يصعق من هول ما رأى، فقد كانت هذه الأم، هي المرأة التي أعطته الرقعة والضفيرتين !.كانت مفاجأة جدُّ مدهشة.. هذه الأسرة وهبت أرواحها لله.. وباعتها بأرخص الأثمان.. طيبةً بذلك نفوسهم.. راضية قلوبهم !.

وقفت المرأة معتجرة قبالة أبي قدامة وقالت :

ـ أمهنِّئاً جئت أم معزِّياً ؟.. إن كان ولدي قد مات فعزَّني.. وإن كان قد استشهد فهنني[1] !!.

ـ لا والله.. قد استشهد وفاز برضوان الله !.

ـ وما علامة ذلك يا أبا قدامة ؟.

---

(1) جمل من التاريخ

ـ قُتل بسهم أتاه في مقدمه رأسه بعد أن قتل روميين من أعداء الله والإسلام !.

ـ أيها القائد: إني سائلتك فمخبرني، فاصدقني القول !!.

ـ أَقَبِلَتْهُ الأرض أم لا ؟!.

ـ (أبو قدامة مندهشاً مما سمع): لا والله لم تقلبه !!.. بل أكلته الطيور والسباع.

ـ الحمد لله الذي شرفني باستشهاده.. الحمد لله الذي استجاب لدعاء ولدي !.

ثم دخلت المرأة دارها، وخرجت تحمل في يدها صندوقاً، وأخرجت مِسْحَاً[1] أسود وغلاً [2] من حديد وقالت :

---

(1) المسح: الكساء الخشن .

(2) الغل: القيد .

ـ كان إذا جنَّ الليل يلبس ولدي هذا المسح ويغلُّ يده بهذا الغل ويقول: " إلهي احشرني من حواصل الطيور وبطون السباع، فما لي عين تراك !" [1].

وقد استجاب الله دعاءه هذا !!.

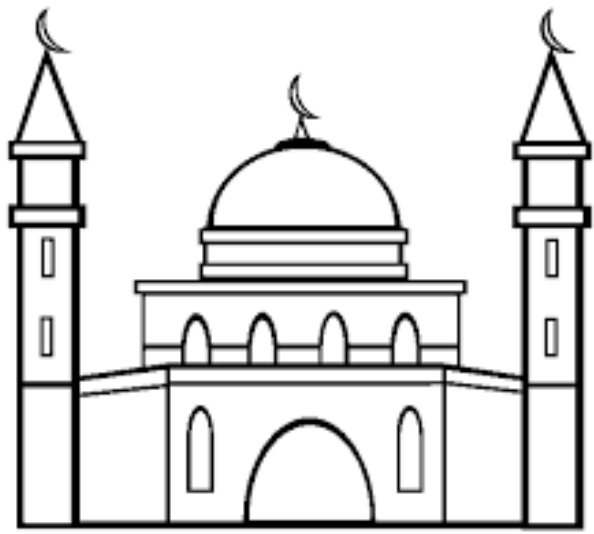

(1) جملة من التاريخ .

الفهرس

إهداء	.....	3
مقدمة	.....	4
اليتيم العظيم	.....	9
الصِّدِّيق الأصغر	.....	49
بطولة وفداء	.....	61
فتيان حول الرسول	.....	69
أطفال من آل البيت	.....	79
الغلام اليتيم	.....	85
فأين الله	.....	91
الفتاة المؤمنة	.....	101
غلام مؤمن	.....	109
نداء الفطرة	.....	115
عندما يقرأ القرآن	.....	123
الغلام الأمين	.....	131
هكذا قيام الليل	.....	147
غلام أبي قدامة	.....	153
الفهرس	.....	169